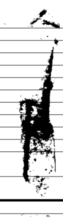
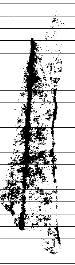
كتاب الأيام :

الهزيمــــة . . امـــرأة . .



بقـــلم

مرعى مدكور



رقم الإيداع ١٩٧٧/٥٢٣٠

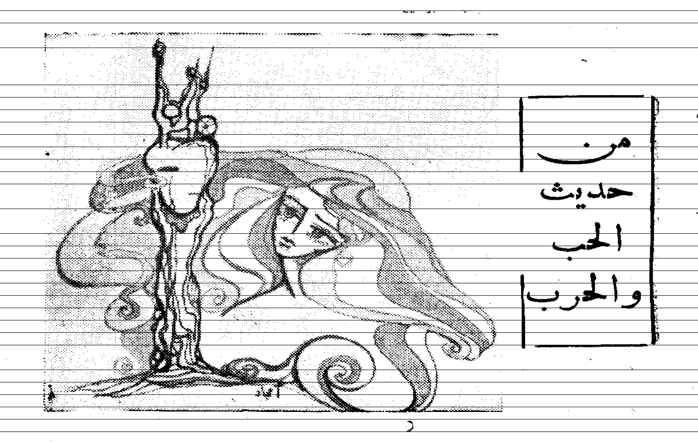
إهـــداء :

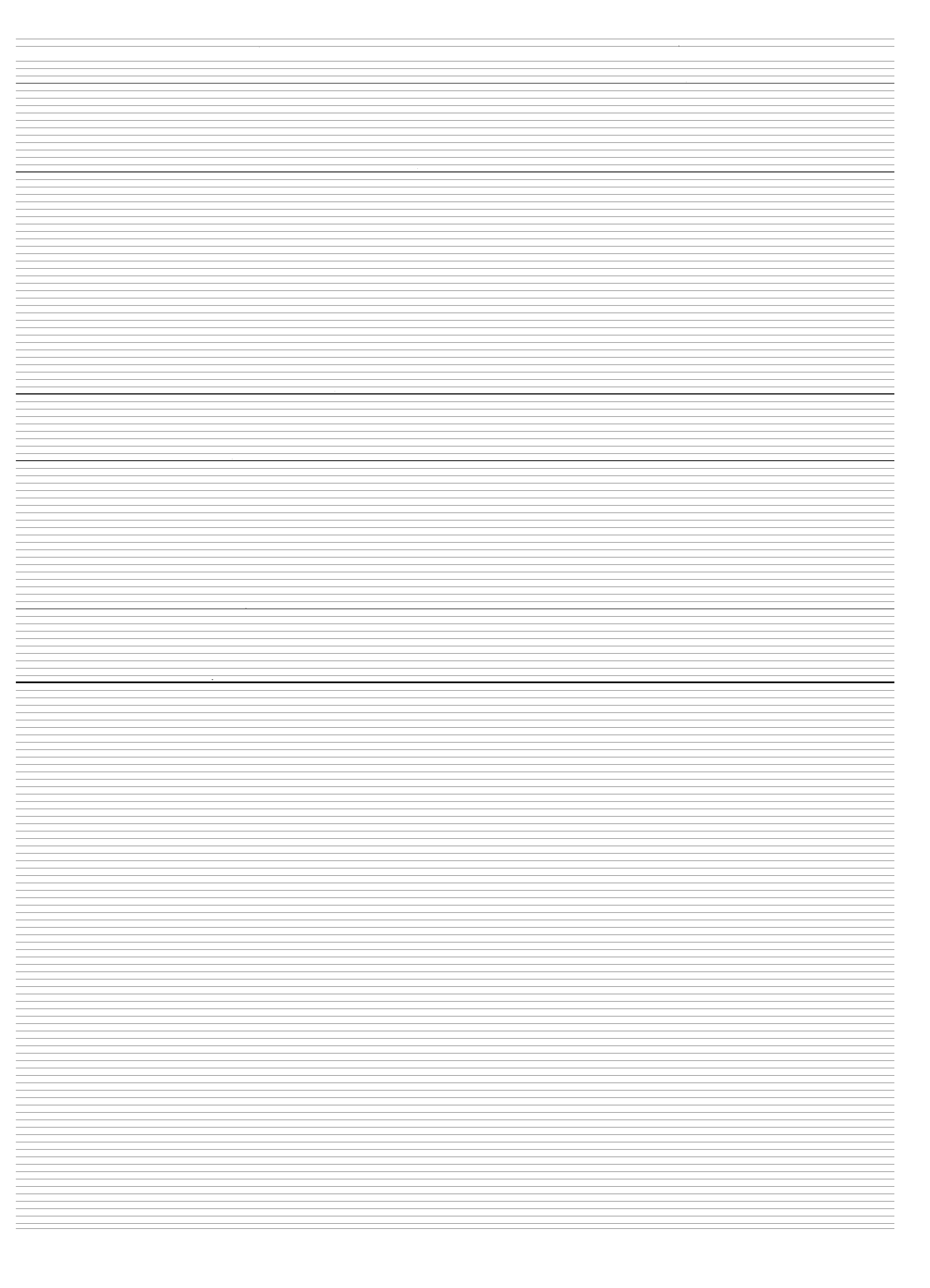
إلى أبي . .

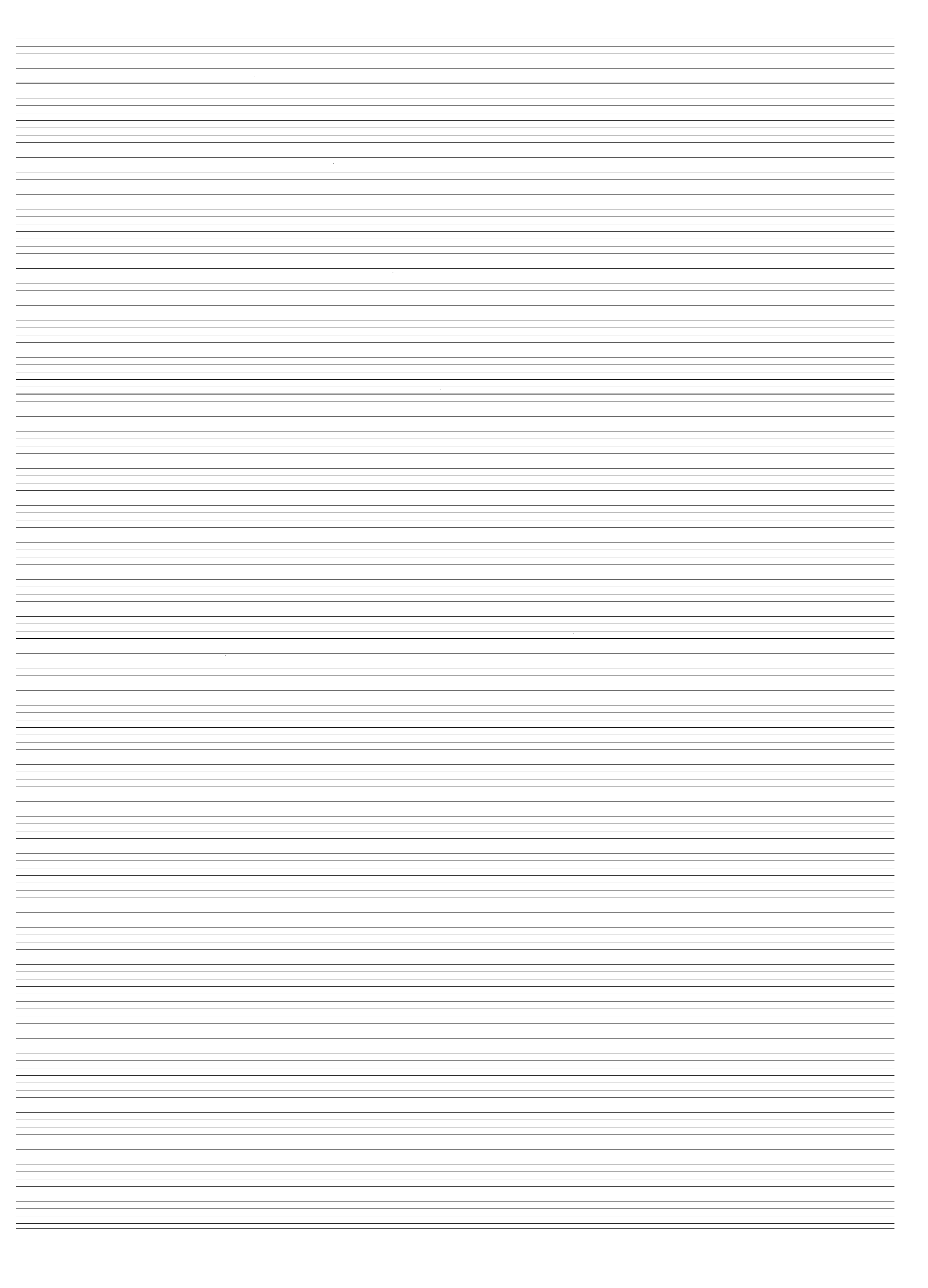
والوجوه التي مني في منطقة الحلم . .

(مرعي)

الغلاف بريشة الفنان ماهر شاكر


من
حديث
الحب
والحرب





.. قلت لمن يعبرون الضفاف :

خذوا وردة من جراحى .. وغنوا لمن لملمت كل حزنى ..

وصارت لعمرى دهشة .. وأخبروها بأنى أتيت ..

* * *

الرحلة : حينما وقفت العربة الصفراء أمام المنزل الطينى ضرب الناس حلقتها .. وعندما نزل منها الضابط الكبير حاصرته العيون .. ولما طلب أن يقابل (الشيخ متولى) أستعجب الناس .. أكد الرجل : « الشيخ متولى والد زميلنا فرج » .. انفلتت بنت إلى الداخل صارخة : « يامه .. ا » .. وناح غراب ..

قالوا : « يا ساتر » .. وتردد فى القلوب همس .. وكلام .. وتردد الضابط ذو النجوم اللامعة وهو يقعد فوق المصطبة .. قال أنه يريد أن يتحدث فى أمر من الأمور .. « خيرا » .. وبدا الارتباك واضحا على ملامحه .. والعريف « جوهرى » على عتبة الباب يروح ويجيء .. نظر إليه .. ارتكز بجواره فى حرج .. المأمورية فعلا مرهقة .. أكبر من صورة لفرج والبنت وهى

تضحك ..و.. يجلس الرجل المسن إلى جواره..و..قهوة؟ .. لا يشربها .. لكن .. لا يصح .. ويرفعها إلى فمه .. دفعة واحدة ..و.. خرج الأمر عن موضوع مغطى..ويتنهد بعمق .. :

« زميلنا فرج ».. ويرفع الرجل وجهه فى لهفة .. يتكلم « أقصد ..»..ويحس الجميع بصمت كبير يأخذهم فجأة .. ينتقل الحدث من القاع المظلم إلى واقع الشعور .. وأين بوابة الخروج من الموقف .. الصوت يخرج خافتا جدا .. يميل إليه الرجل العجوز مكورا يده فوق أذنه .. « أقصد فرج زميلنا كان أشجع ..» ..وينجذب الشيخ إليه .. يدور همس مذعور ينبىء عن حادث كبير .. يدقق الرجل .. وفى سرعة يمسح دمعة شقت وجهه .. ويرتمى فى أحضان ذلك الضابط الكبير ..

° ° °

الموقعة : تصفر الدانة .. وتسافر .. وتسحب معها الهواء ساخنا خاطفا .. يرفع المنظار إلى عينيه ويتابعها .. ويشد قامته .. ويدقق .. ويميل إلى الأمام .. ويكز على أسنانه .. وتنفر عروق رقبته عندما يصرخ محذرا :

ـ ركز الضرب يا جوهرى ..

— مدفعك بزايه يا شيمى ..

وعند ما يرتاح المنظار على صيدره .. وتنفرج شفتاه عن ابتسامة خفيفة آشق سمرة وجهه .. ويرتاح الجميع إلى التحام العيار بالهدف .. ودوى .. ويظهر شيء يتلوى فى الأفق .. وفى حرارة يتعانق الجميع. هذه المرة اشتد الأزيز فجأة .. صرخ فرج « فانتوم يا جوهرى » .. وكبر السهم الذى يشق وجه الفضاء فجأة .. وشيمت لها اا « شيلكا » قذائفها .. وصفرت الدانات .. ، وصفر الكون .. وانقض السهم .. والتكة .. والطلقات .. وتزمجر الريح .. وتعاود الطائرة الارتفاع خاطفة .. ويرتج البرج فى عنف .. وانفجار مروع .. رغم الصفير .. والدوار .. والطلقات .. تتجمد الأشياء فى العيون .. يد مرفوعة فى الهواء ما زالت .. وكتلة حمراء تنبعث أمام الصدر فجأة .. وتتسع العيون محملقة فى البقعة الحمراء فوق الصدر .. وعيناه المسحوبتان كخطين مستقيمين فى وجهه وأسنانه البيضاء التى تأخذ من الوجه المحرق حيزاً .. والبقعة الحمراء تتسع .. والصدر يعلو ويهبط .. ومع حركته تتدفق الخيوط اللزجة القانية صانعة خطاً عريضاً يسحب نحو الشرق.

وتتسع البقعة الداكنة .. ويشهق .. ويظل الفم مفتوحاً

على آخره .. يجرى « الجوهرى » تجحظ العيون غير مصدقة
يخيم الهم الثقيل على القلوب عندما يكتشف الطاقم أن الميت منهم
ورغم الصرخات التلقائية والتكبيرات فقد حل صمت هكذا فجأة
اكبر من الموت .. وبدأت النيران تندلع من الكتلة الكبيرة التى
طار برجها ورقدت كالفيل الكبير .. شق الجوهرى سترته ..
تكها فى الصدر المفتوح محاولا حبس الدم المندفع فى حرارة
ويدقق فى عينى « فــــرج .. » وعضلات وجهه البارزة وفمه
المندق على آخره .. وتوترة الخيــف .. ويسحــب الخيط
المدلى من رقبته .. يلوى شفتيه عندما يتكرر السؤال عن فصيلة
الدم .. ولاحساسة بالخلاص يحتوى الجسد المسجى أمامه يضمه
فى صدرة .. ويتذكر جملته الشهيرة وينطلقها فى همهمة مكتومة :

— فرج من فصيلة أهل الله يا ناس ..

.. ويصرخ .. وتدور عربة هذه المرة إلى الخلف .. تعبر
الجسر الضيق .. والعربات الأخـــرى تهدر مشرعة مواسير
المدافع فى الهواء لتبصق لهيبها فى الجانب الآخر ..

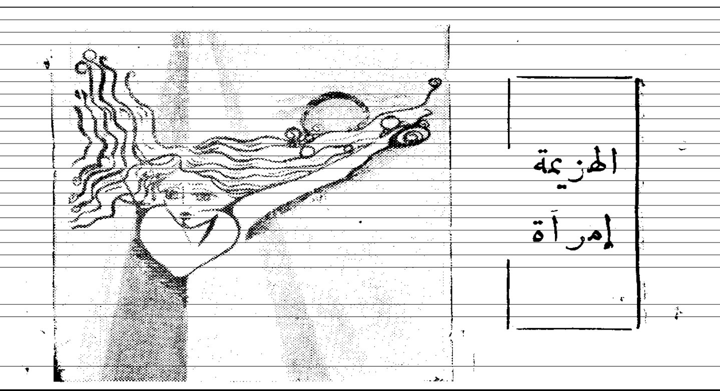
° ° °

الحب : اندفع « فرج » فى هواها اندفاعاً مناجئاً وبدأ الأفق
يتسع أمامه .. طافت به الأحلام فى عينيها .. بصت البنت
إليه .. حكى لها .. ولما جاء الدور عليها بحلق فى عينيها .. قالت :

أقول .. قال : لا .. قالت أنت حكيت .. قال : اكتفيت ..
وقال لها : أنت أحلامى وظلى .. وعندما ركب القطار إلى ناسها قالوا « بكل سرور » .. وغاب فى الجيش الكثيف ..
وقالت « وماذا بيدى » .. ودمعت البنت .. وجذبها من يدها .. وراح بصره إلى البعيد .. وعقله يوازن بين « بكل سرور » المجاملة و « لا » الحقيقة .. وعند عبورهما الميدان اصطدمت عيناه بالمغنى الأصلع و « الليل » .. وصوت ذات المغنى يجعر « عظيمة يا مصر » .. ويعض شفته السفلى ..
ويضغط ذراعها .. ويختلس نظره إلى الوجه المريعى ..
تزعق عربة الـ U. N. .. تسحبه مسرعة إلى الطوار لاثمة :

— الرجـــل يسبنا ..

ويضحك غماً .. ويطلب منها أن تنسى المسألة كلها ..
وعندما يغيب داخل عربة القطار تلفه بنظراتها .. ويدق الجرس دقاته المزعجة .. ويزداد وجيب القلوب .. فتضع يدها على الصدر .. ويفعل .. ويضع يده فى جيب سترته ..
ويخرج بطاقته .. ويضع أمام عينيها صورتها وهى تضحك وتضحك .. وبروح إلى الأمام مع الحركة الفجائية للقطار ..
وتتحرك شفاههما .. ويغطى عليهما صفير القطار الحاد ..
ويتحرك .. وتلفه بعينيها وهو يغيب مع الغبشة الضبابية ..
وتلوح الجنود الذين يملأون جوف القطار فى رحلتهم الطويلة .


الهزيمة
إمرآة

...

... ويتمزق الصمت .

ومرة واحدة تختلط الأشياء .

تصير دوائر ، بيضاوية ، مربعة ، مثلثة ، منكسرة ..

الأشياء لها رؤوس .. الرؤوس فى مصابيح .. والمصابيح لها زجاجات .. والزجاجات تتناثر .. تخترق الجلد إلى النخاع ..

والطنين موجه إلى الرأس تماما .. يتداخل .. طرقعات الكفوف والدفوف .. العيدان والنايات .. والأصوات المرتعشة المبحوحة .. و « عرفت يا ولد تختار .. » .. ! ..

وتتجسم التفاصيل كلها .. فى شكل لا محدود تتشكل .. تنسحب ــ بيضاويه ــ صوب الأذن عويلا متكوراً .. يتكور العويل أسفل غطاء جمجمتى مترقبا لحظة الانتشار فى الفضاء اللانهائى ثانيا ..

والخوف الممزوج بالرغبة يجلدنى .. يضغط الصدر بكل أثقال الأيام .. وصدأ تجربة عقيم جديدها ..

.. تطارقع السياط .. حادة السنتها .. قاطعة .. و ـ رغما ـ]
لا أفارق المكان حسرة .. وآخر حلقات قيدى الوحيد تتحطم ؛
وقبل أن أ كبل — شرعا — به ..
.. فى غل يمسح المكان بصرى .. وللمرة التى لم تذكر
بعد فى حساباتى ..
يا ويلى ..
صار الحب احداثا تحترق ..
ويترك لنا رمادا .. هو التجربة . ! ..
والتصفيق ..
والأجساد لا تكف عن التأرجح .. تدور .. وتدور
رأسى ..
وتدور الأشياء ..
ويدور البحث عن ثابت ..
— ما جدوى البكاء .. ! ..
واضغط رأسى . آه لو تتوقف عن التأرجح فى هذا
السكون الأجوف ..
.. ومثقل بالتآ كل فى منفى الصموت أستدير .. آه يا مخدعى ..
الحجرة رمادية ..

الحجرة واق الواق . . تتراقص داخـل الأشياء . . كانت
تحكى وترقص فى عينى .. وأحلم . . وتحلم . . وتحكى . . وتحـــلم
بطقوس زفاف فرعونية . . وتتصارع من داخلى الأشياء . .
أهتف للفرار من الأشياء

. . والأصوات كرات تنساب . . تتركز تحت الجلد . .
تنتشر بداخل النخاع .. وتدور بى الأشياء ..

كانت — حبيبتى — تقول وفى عينيها أحلام المساء :

— بماذا تحلم يا ولد . . ؟ . .

أضحك عاليا . . وأرسم لحبيبتى خيمة عرسنا ، ولحظـات
الالتقاء الأولى . .

والجزرة . .

وتسدل جفنيها فى حرج قائلة :

— . . أنا أحلم يا ولد . .

— . . . ليلى . . ! ، . .

. . وانظر إلى حبيبتى ، وأحتوى حبيبتى . . وتحتوينى
. . و :

— شهادة كأننا نوقع عقد زواجنا . .

— ولد .. أتحبنى حقيقة .. ؟

واعتب على حبيبتى .. السعادة أن نشعر بالتســـامح تجاه
من ظلمونا ..

.. وتضحك — حالمة — حبيبتى .. وتحتوينى و :

— من مولدى يحتوى القلب حبيبتى ..

.. وتصدمنى الأغنيات .. وقلبك يا — أنا — يجوع
لمبنتك .. ورغم ما كان فالقلب ينهشه الجوع يا ولـــد ..
والعاطفة العميقة ما زالت مشتعلة ..

رغم مرور الزمن .. هى هى يا « ليلى » .. وضامة
حبيبتى كانت ..

ونفوك عن شعرها .. وأحضانها .. والحجرة الرمادية
التى تنتظر التكبير ..

والشهادة ..

وتركوك للحزن يا — أنا — .. وذكرياتك كاختلاجة
شيطانية لا قرار لها

.. فى أعماقك تدور .. وتنهش ..

وعليها تتلوى الأعماق ..

و « من يجيب الصبر يا أهل الله يداوينا .. ا .. ا .. »

وأنات ذاتية تلعن . . ويتراخى الجسد . .

. . يتراخى . . وقتامة الأشياء تتزايد . . وتــدور الأشياء . . وتتواقص فى عنف شيطانى . . ويحتوينى الدوار . . وترتكز الدنيا على القرن الآخر للثور — عن جدى قالت عنه لى أمى — الضائع فى لا جدوى الخلاص . .

وكرد للفعلة يصد فى الجدار . . أصرخ . .

تجىء صرختى تافهة مكتومة . .

وأتهاوى . .

وأسبح فى ملكوت الله على وجهى . . يأتى طائر ضعيف . . يخطف سمكتى منى . . تفر من بين يدى . .

وتائه أنا ياناس . .

أفيق . . أصرخ :

— ياهو و و ه . . !

ويصيبنى هلع مروع . .

ياخلق الله . . ! . .

كأنى تقدمت سنا قدر عمرى . .

والدم يا أولاد ينزف . . أين ؟ . . من أصبعى . . وبسماتى دموع . . والريح تجمع من حولى محذره :

— سَجل . هذا هروب . . .

. . وأصرخ . . وتلتف الخلائق من حولى محذرة . . تتمصمص

شفاه . . تهمس أخرى :

— نأتى بطبيب . .

— طبيب ؟ . . وماذا سيفعل الطبيب . . ! . .

. . وبغزارة تزف الدماء من اصابعى . .

وأعتب على سمكتى الضائعة . .

ويحتار فى الداء الطبيب . .

اتساءل :

— وأمانينا . .   ؟

وبلامبالاة — هكذا — يجيبون :

— نصيب . .

وتخرس الشفاه . . والرغبة فى عيونكم جيفة لا تساوى . .

. . وثرثرة . . ورنين متواصل . .

ومثقل بالرغبة المتصارعة أتحامل . .

وأشهق بالخوف الممزوج بالرهبة . .

— مارسيل   . . !

— مارسيل . .

. . والمخزى أن تأتى البنت وقد فقدت — الآن — تماما
رغبتى التى منيت بها النفس فى ليلة الخواء الماضية . :

وتتبعنى . .

وتحيطنا جدران أربعة . .

وينسدل الستار . .

والحجرة مغلقة . .

والحجرة . . الحجرة لابيضاء ولارمادية . .

الحجرة تلعب . . الحجرة فاقع لونها . .

والسرير وليمه . . والوليمة تنتظر السكين . .

والجزره . .

وتلهو « مارسيل » . .

والحجرة فاقع لونها . . والسكين يتراجع مكسورا . .

وتلهو « مارسيل » . .

والليل بطيء . .

والأغنيات متدفقة . .

وقبلاتك قديمة يا أنت . . باردة تماما . .

وغزارة الأصوات تضرب فى أعماق العمق . . وأنات ذاتية

تلعن خداع الزمن . . وسحابة دخانية تلفح وجهي . . وضحكات
خليعة ترميني بها « مارسيل » وهي تخرج من ثيابها . .
يا الطاف الله . . ! . .
البنت تخرج من ثيابها . .
. . البنت حركاتها دوديه متأنية . .
. . جديد هذا علينا . . وما أمرّ الجديد في قريتنا . .
ــ رغما ــ يلتهم نظري خصرها الانسيابي . .
تنساب النظرات أسفل الخصر الانسيابي . . تتركز . .
غير معهودة في ريفنا هذه الأشياء البضة . .
جارتنا التي كنت استحسنها تبدو كالسواري النوبي . .
أي والله .. هجانة تمام .. واختي « مرزوقة » كشيخ الخفراء
بلحمه ودمه وشحمه .. هوهو .. حتى في شاربه .. وان
كانت مسألة الطول هنا نسبيه ..
بلدتنا نقطة تافهة على الخريطة ..
الأبيض عندنا يعرفونه بالأشعل .. يناديه الأطفال بـ
« عدو الشمس » ..
يا « عدو الشمس » ..
والبنت تنفخ ..

البنت أفعى ..

البنت تدخل رأسها فى ثوب « هفهاف » .. الثوب يشف
عن مفاتن الجسد ..

البنت تضحك . . تهمس بدلال :

— تحت الأمر .

« باضت لك فى قفصها يا ولد » ويتركز النظر . . يخترق
الحاجز . والحجاب وينفذ .. النظر يصيب .. النظر بعيد جداً .

ترفع إحدى قدميها . . اشهق . . تمهلنى :

— صبرك . . ! . .

وتمد يدها . . تطبق أطراف أصابعها . . تهزها إلى أعلى قليلا

— ســنرى . .

وترفع قدمها الأخرى . . القدم اسطوانيه . . القدم عجينة
يا عباد الله . . ! . .

ترمى بسروالها نحوى .

أضغط القطعة الحمراء فى يدى . . أكورها .

القطعة الحمراء نار جهنم الموقدة . .

القطعة حمراء وجهنم حمراء والجزرة دمها أحمر والحجرة
فاقع لونها .

اكور القطعة الحمراء الملتهبة كطاقة جهنم .

فى خبث أقذف بها تحت سريرى .
البنت لاحظتنى . . تضحك فى دلال :
ـــ نتبادل . . ؟ . .
وتدور أمام المرآة . . ودورة أخرى . . وعاشرة . .
وتصفية منتشية .
وضحكة دالة . .
والاستلقاء بجانبى .
والتكور . .
وإفرازاتها الملتهبة .
وتصرخ . . والجسد يصرخ . .
البنت تور هائج . .
البنت رافعة شعار الابتداء . .
تضمنى فى عنف . . تضغط صدرى . .
أنفاسها لاهثه . . وقلبى يدق . .
وخائف يا أنا . . والهزيمة امرأة . . !
وتصيح « مارسيل »
تغيب نظراتها باحثه عنى . . وتتوه . . و :
ـــ الليل ضائع . .
وعزى مسلوب . . وقواى محطه . .

— أو و و ه . . . كامل . . !

— . . .

— آه . . تشرب ؟ . .

وعلى شفاهي يضيع الحوار . . وتدفن نفسها في استسلام . .
ترجو أن أنهي سريعا . . البنت عارية . .
البنت تروح وتجيء . . تتكلم . . تتكاثف الكلمات ممزوجة
مع رفات الرغبة . . تتكاثر . . تأخذني بعيدا . .
يوما شردت فصاحوا :

— أبله . . أسقطه رمش عابر . .

شيخ وقور أكمل :

— سامرها يا ولدي . .

— حكيمة يا جدنا . .

رد مشوّحا في غضب أبوي :

— الحكمة يا ولدي منسية . .

قلت مستوضحا :

— أنبرني ياجدي العزيز . . ماذا أفعل ؟ . .

— سلها يا ولدي . . فأحلام البنات وردية . . وحكاية
الشاطر بحصانه تعرفها كل صبية . .

والأم ترضع ابنتها أوصاف الفارس ..
وأنها أحلى أميره ..
— حبيبتي حلوة ياجدنا ..
وجمال حبيبتي غير عادى ..
لكنني خائف ..
ويعلق الشيخ منسحبا :
— يا ولدى .. إذا قلنا برئنا .. واسترحنا ..
وعند المغيب أهمس لحبيبتي :
— ماذا لو افترقنا ..؟ ..
— افترقنا .. ! ..
وتشهق دامعة :
— يضيع شيء منك ، أما أنا فيضيع عمرى ..
وتغمرني نوبة اطمئنان مفاجئة ..
وأقول لحبيبتي .. فإنا إذا قلنا برئنا واسترحنا ..
وتنسحب حبيبتي ..
وأسأل أيام الجفاف .. وأدور مع ضاربات الودع وقارئة الفنجان .. والكف .. وجامع الضرائب العجوز ومحضر الحكومة القاسى وعميل تليفونها الصلد .. وشيخ خفراء بلدتنا

أيام زمانه .. وتخشيبة المركز وحشراتها .. ولصوص الليل
الذين لم يتركوا شأننا لنا ..
ويتباعد الخيط تماما ..
وتبقى العاطفة العميقة مشتعلة رغم مرور الزمن ..
وتدور الألسنة .. ويبقى الندم عزاء كل خطيئة ..
والخطيئة نائمة .
وتهزني ..
وتصيح بي :
— تحلم ؟
وتكمل مستفسرة :
— وبماذا تحلم ؟
— بأحلى من الواقع ..
— المر لا ينسى ياصاحبي .. خذ ..
— خمر .. !!! ..
.. والخطيئة ناعمة .. والعينان مستجديتان .. والصدر نافر ..
تلتصق البنت بي .. الصدر يعلو ويهبط ..
ويلفحني وهج مدمر ..
واختلس النظر إليها .. وتضحك ساخرة :

ـــ خـــذ . .

وتمد يدها مكملة :

ـــ البنات يجرين وراء الارتواء . . وأنت . . هاها . . ه

إشرب ياصديق . . إشرب . .

وتنقلب الدنيا داخلى . . وأشهق . .

وتضغطنى « مارسيل » . .

وتحتوينى بصدرها النافر . .

واختلس النظر إليها . . وآظهر مسحة حزن دفينة . .

ويندب السؤال المدهش :

ـــ ومن رماك على هذا ؟ . .

وتضحك البنت .. وتحزن فجأة ..

البنت تغرق فى أفكارها .. :

ـــ المر وأولاد الحرام ..

وتتفرس وجهى ..

تهزنى فى عصبية مستنجده :

ـــ لم لا يعطوننا حق فتح موضوع الزواج .. ؟ ..

ـــ هه .. ؟ ..

— ما علينا .. اشرب ..

— ...

— اشرب ..

وتنزلق اليد إلى الوجه والرقبة ..

والكتفين ..

والصدر طاغ ..

وتتكلم العينان ..

وتداعبنى البنت .. وفتحة الصدر .. والساق العجيبة ..

.. والبنت اسطورية ..

والفخذان بيضاوان ..

الفخذان اسطوانيتان ..

والقمة عالية ..

ورفقا بى يا عربيدة .. ابعدى الكأس أو دعيها تتحطم ..

واقشعى عن عالم السكارى ..

أوأشعلى فى الخمر نار ..

ففى ضوء الحريق تبوح ضلوعى بما بينها ..

بالتزام السنين لاجل الخلاص ..

فاعدت احتمل العذاب وقلبى يحـــترق .. وانظرى

يا مريضه .. :

أما فى عينىّ شكوى ؟

أما فيها شقاء ؟ . .

وتضيع الحقيقة .. يتباين وجـــه أمى ، يتجسد ، هى هى بعينيها ..

نفرتيتية العينين والوشم . .

ويحتوينى صدر أمى .. تدندن باسمه .

« يا ولاده بعد كبر .. بعد ما شعشع السجر .. بعد ما قالوا الحرمه عاقر ولا تجيبش ولا دكر .. يا ما عطية ربنا حـلوه ..

يا ماينول اللى صبر .. » . .

وانثى .. وتـكمل أمى :

« يا ولاده بعد حين . . بعد ما شعشع النخيل . . بعـــد ماقالوا الحرمه عاقر ولا تجيبش ولاصغير.. يا عطية ربنا حلوه..

ياماينول الصابرين . . » . .

. . طيبة ـــ والله ـــ أمى .. أخر مرة سمعت معزوفاتها عند عودتى لمنزلنا وقـد تسلموا منى السروال الأصفر والسترة والطاقية ذات الشعار و .. أقول لـكم باختصار :

« ١٨ حتة » أى والله .. حسبتهم مرات ومـــرات ولطف عليهم الباشجاويش القفل الأصفر الـ « ييل » .. و :

— « فى عرضك يا حضرة الصول » عبد العظيم « القروانه والنبى .. »

— . .

— « طب أخدهم كلهم وأهى عهده .. أمال كما يجى الحرب أحارب بلسانى ؟ » .. ولا فائدة ..

وتتنبه أمى .. تدقق .. تذكر حكاية الولد (سند أبو المكارم) الذى جاء فى أيام ٦٧ هاربا .. وجاء النحس معه ..

— ملعون سند وأبوه .. وأنت ومن خلفوك ..

وتبصق فى وجهى .. وعندما رأت أصبعى المبتورة من عنف المشاركة كتمت فرحتها .. قالت :

— ولو ..

وتشهق دامعة :

— « ومين يحمينا عاد يا ولدى ؟ .. »

وتدقق فى النجمة المتربعة فوق صـــدرى .. ويحتوينى صدرها ..

وأرتاح .. وتبتسم فى فهم آمره :

— طوح بشكواك الينا ..

— كثير .. وكيف أهرب ياامليحه ؟

ــ كل مكتوب يجيء ..

وتهزنى « مارسيل » تضحك لجودى .. تهمس :

ــ أخذوا حبيبتك ؟

ــ تركتنى للأحـــزان ..

ــ أنا مسيحك ياحزين ..

.. وتحتوينى فى صدرها ..

ــ والالتزام ؟

ــ أجازة وقتية ياشيخ ..

.. وتـكمل :

ــ مثلك كنت .. وبمجرد الاندفاع فى الشىء صرت مائدة مفتوحة .. وبدأ لى الزنى فى كل العيون تواريخه مكتوبه ..

وتعتصر شفتى فى نهم .. وتضغطنى ..

ــ والعقيدة ..؟

ــ شعار تربينا عليه ..

وتكمل فى لهجة رجاء يائسة :

— تريد أو لا تريد . .

. . وتلتصق بى . . والحجرة فاقع لونها . .

والطلقات حادة . . سريعة . .

وصياح حاد مخيف . .

وثانيا يتجسد وجه أمى . .

أطأطىء رأسى . . تجذبنى البنت . . والسكين ينكسر نصله . .

وتصرخ البنت . .

وتبصق على وجهى . .

وتبصق أمى . .

واحلف لها بجدى « القناوى » وعامود القطيع وأشجار الصفصاف على « بحر يوسف » أن تدندن لتن عينيها . .

وأدفع البنت . .

وأمد يدى إلى البنت

وتدفع لى بأوراق ثانيا مع بصقة شيعتها إلى وجهى . .

وتبصق أمى . . والبنت تبصق . .

وينتشر البصق مثل توالد سمكة الشفاء التى انتشرت ذات

يوم فى صحون قريتنا ..

وأضرع ثانيا أن يحتوينى صدر أمى ..

والرنين والدق على جرس بابنا ..

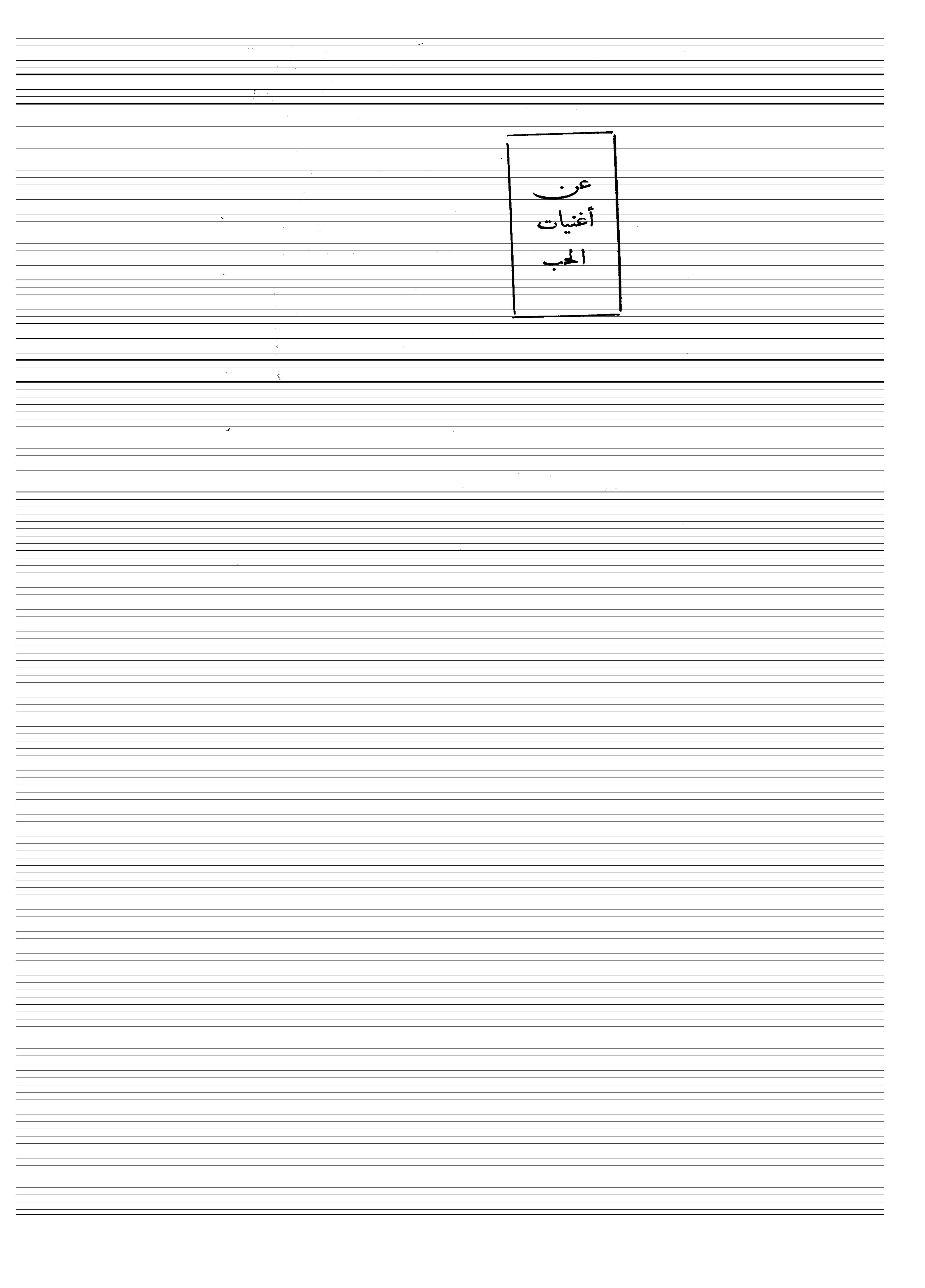
و د ليلى ، فوق الحصان الأبيض

والطلقات حادة ..

ويتمزق الصمت ..

ومرة واخدة تختلط الأشياء ..

* * *



عن
أغنيات
الحب

. . وها أنذا ـ أخيراً ـ أجيء . . أدفن وجهي إليك . .
أرتاح إلى صدرك ، كأيام أن كنت أسرع إلى الحليب في نهديك ،
وأسبح ، وأهيم . . وأشرد وأغفو . : وتحاولين ـ حتى ـ منع
الريح عن مداعبة خصلات شعري الحريري . . على غير العادة
أجيء يا أمي ، وفي صحبة من : « حاتم » يا أم . . ! . .

مفاجأة والله هذا .

« حشمت » في يد « حاتم » ، وعلى مرأى من عيون خلق
الله ، يتعلق بذراعي التمي ، والغريب ، أنه لا يتحاشى هذا ،
وأغلب الظن أنه يستملحه وكأنه حقه المشروع صار ، وفي سيره
المتبختر صامت . . صامت كأن عقول أهل الأرض نزلت إلى أم
رأسه . . وأنا . . آه يا أنا . . حـــيرى . . أحاول البحث عن
جواب شاف لكل ما يدور . . وعيونكم يا أهلي لا تنطق . .
لا أحدكم يريد تحمل مشقة إعلان بحقيقة الأمر بعد أن خبتم في
إعفائي من قيدي الحاتمي هذا .. ولا حتى أنت يا أمي.. تتحاملين..
وتكتمين . . و ـ رغماً ـ تظهر مسحة حزن في عينيك ، وشعور
غريب أعرفه ، أحسه . .

وما عهدتك أبداً هكذا يا مليحه . .

لا انهزامية ـ كما أعرفك ـ ولا تقبلين أن تجديني أرغم أن أزف إلى « حاتم » هذا . . أم صرت أنا البعيدة عنك غريبة ..؟

غريبة . . ! . . وكأني لست منك يا أمي . . وأبي . . ياعتبي عليك يا أبي . . هو هو أبي . . فقـط يسمع . . أما أنا فلا لحمه ولا دمه . . يصمت ويصمت . . وأخيراً . يطلق عياره ليصيب أحداً . . دائماً . . دائماً . . لا يشارك ولا يحاور ولا يجادل . .

قولي لي وحياتي عندك يا أمي : هل أطلقها أبي ؟ . .

أم للآن فقـط يسمع ؟ . . حزينة أنا ـ والله ـ يا أمي . . تدور الدنيا دوراتها .. وساعات أختلسها لأرتاح إليك .. أدفن سري فيك .. أودعك آخر أخباري في رحلتي على البعد .. أنتظر رد الفعل على ملامحك القريبة مني .. لـكن .. الزمن قاس يا أمي .. ملامح دوراته على جبينك أضحت واضحه . . ترك بصمات أيامه في شقوق . . نفس الشقوق التي ارتسمت على ملامح جدتي أواخر أيامها . . أي والله يا أم ، صرت الصـــورة نفسها لجدتي . . والأعجب من هذا أنك لا تأخذيني أرتاح إلى صـدرك هذا . . ولا تريدين ، ولا أحد يريد إفهامي .. وحتى « منصور » ـ العفريت الشقي ـ لا يرتمي مهرولا إلى صدري ليأخذ القروش الخمسة ويغيب ليأتي بعيدان القصب وصوابع الملبن والمصاصة الحمراء . .

ـــ تعال يا « منصور » . . نسيتني يا ولد ؟ . .

ولا يجيء . . آه يا « منصور » . . أتبكي . . ! . . ولا يمد الىّ يده . . أطيب خاطره ، استفسره :

ـــ . . . ؟

ـــ أمي ماتت يا (أبله) . .

وأضمه إلى صدري . .

ـــ كلنا أهلك يا « منصور » . .

وأشم رائحة الكلام . . والصمت ، حتى الصمت في عيونكم يقول أشياء كثيرة . . و « حاتم » يأتي بكوب الليمون . . المرة الاولى أن تضع عقل الناس في « دماغك » وتهدأ . . لكنها مقبولة منك يا « حاتم » . . لكن الـ . . الموضوع أعمق من ذلك . . الدكك مصفوفة أمام دارنا ، ومسامير « الكلوبات » تغرس في لحم الأشجـــار الجميزية العتيقة . . وسهرة ، وانتهينا لبعضينا يا « حاتم » . . بعـدك وبعدكم يا أهلي . . وحتى أنت يا أمي، لا تتكلمين ، أحاول جرك إلى الحديث ، وماذا عني ، وماذا يضعضع نفسي ، ويفور بداخلي . . وأشياء . . وأشياء . . بعيدة أنا عنكم . . وعيونكم تحكي أشياء . . وغريبة أنا والله يا أهلي عن فهم إشاراتكم . . والصمت في عينيك حزين يا أمي . . تترافعين

ـ لا شك ـ لكن .. لكن ماذا يا أم ؟ .. الموج أقوى ؟ ..
ولو .. نتاوم لآخر المدى يا أم .. « حاتم » يا أمى ليس لى ..
انتهينا معاً قبل أن نفكر فى ابتداء الشوط .. تمرغ على قدمى
منتظراً أن أسمح له بالدخول ، وعندما استعصيت على فهمه انشغل
بنساء الفلاحين ، وأنفار الجمعية ، وأصبحت المقاطعة أبدية بينى
وبينه .. وهذا تعرفينه جيداً يا أمى .. لماذا لا تقولين للأشهاد
وتخبرينهم جميعاً أننا لم نعد أثاثاً يتوارثونه بصلة الرحم ، والقربى ..
والله يا أمى كثير هذا على قلبى .. أثقل من أثقالى يا أمى ..
والناس يجيئون ، قبلاتهم واحدة .. حزينة .. صامتة .. حتى
شقيقة « حاتم » نفسها ، ترتمى على صدرى وتقبلنى كثيراً ..
كثيراً .. وتضغط رأسى .. غريب هذا يا ناس على أفهامى ..
ولم تقل لى عن « حاتم » ولا غيره .. كأن البنت « زينب »
تعرف الوله .. أى والله كأنها عاشقة .. وأنت .. ثورى يا أمى ..
قولى على الملأ :

ـ ابنتى تحب ..

* * *

قراءة أسفل لوحة عاشق :

أنقب فىّ عن ما ملكنى ، أبحث فى داخلى ،
صرت - أنا الذى اشترى بالموت كرامتى -
مصيراً ، لكن . . ما هذا الذى أحسه منسابا
داخل شرايينى . . ! . . وأحمد الله . . فأنت
متربعة فى تاج القلب ، ترسمين لى فى رحلتى التعبى
طريق الخصوبة . .

* * *

. . وحبيبى . . آه . ! . . قلت « حبيبى » يا أمى ؟ . . نعم . .
صغيرتك تحب يا أم . . تصدق . . ! . .
أنا الصغيرة التى كنت أعيش كالهائمة ، أجدنى الآن ولهى
بحبيبى يا أمى . . وقلبى لم يعد لى . . قولى وحياتك يا أمى . . :
- هل أنا مخطئة ؟ . .
أفهمونى والله يا ناس .. أقتل الحب فى قلبى .. أم أحب . . ؟
حبيبى يصطرم الصراع بداخله ، يضرب بالفرشاة فى لوحاته ..
تأتى الألوان بمفاهيم جديدة للحياة ورؤى داخلية للوجود ،

يفرض فيها حبيبي - عذراً يا أم - . . يفرض فيها « مجدى » نفسه على الطبيعة والأحداث .. لكن .. ذاته تفضحه إزائى .. لا نحكى لنفسينا ، وتحكى عنا الأشياء . . يغيب عنى « مجدى » ويأتى . . وتلتقى العيون . . وتقول ، تفضح عن الموصول بيننا . . لكنه صامت دائماً يقولون بان الحرب أخذت من عقول الناس . .
وأقول لنفسى : يا فرحتى ياأمى بحبيبى . . وأنتم غشم يا ناس . . حبيبى لى يا أهل الارض . . همساته لى ، لوحاته ، كلماته . . حلم انتظارى يا « هووه » ، بصمته . . بصخب لوحاته ، وهمتها ، وجنونها الذى تماماً يناقضه . . أحبه . . بصدقه ، بعواطفه الغير مدربة . . فلماذا تعيبون صمته ؟ . .

ويطوقنى « مجدى » بنظراته . . أغيب فيتحسسنى ، وأتعمد الاختفاء . أجده من ورائى . . أفاجئه . . أفاجئه طلعة القدر المقمر .. ألقاه .. أنتظر عل حبيبى يقول لى ما أريد أن أقوله أنا له .. رائع حبيبى . . شعاعه يحتوينى . . وأنتظر ذوب الحب . . فى وضع الاستعداد أبقى . . ينجذب كلانا للآخر . آمل أن أتحسسه بلا عوائق متداخلة . . ولا يقول حبيبى . . وأنتظر . . وتزلزلنى صاعقة . . ثانياً انتظر يا « مجدى » . . ! . .

وأتمنى أن لا يطول الانتظار . . وإلى يوم آخر يا أمى . . لكن . . لم تقولى لى يا أمى :

— هل يصح لنا نحن البنات أن نبدأ بالمصارحة ؟ . .

كدت - والله - أن أفعلها كلما أقف أمام لوحاته . .

° ° °

قراءة ثانية أستمل لوحة أخرى :

أهيم مع ألوان قوس قزح باحثا عن لون ثامن
أجد فيه صفاء عينيك ، وفي نهاية عودتي لا أجد
إلا لقاء ذاته فأعيش ما أبحث عنه حيث
لا أجد إياك إلاي . .

° ° °

يبسم لي حبيبي يا أمي ، أراه جميلا ، أصغر بكثير مما يتوقع الناظر إليه ، أرسمه في ثياب حريرية ، تماماً في مثل طولي ، نفس الصورة التي - مراراً - رسمتها في خيالي . . أرفع وجهي إليه ، ونظارته الطبية . . يشوح بيده في ثورة صاخبة ، وأنا أعتني بملابسه ، والحصان الأبيض ليأخذني حبيبي ، ويطير . . ويرقص قلبي بجانبي ، يدق دقات غريبة أعرفها . . أتشوق إلى أن أعيش وحبيبي الحب أيا كان أعيشه : عذاب . . طوفان . . تعب . . نهاية . . أراه . . أحسه . . أعيشه والسلام . .

.. يأخذ « مجدى » لوحاتى ، يرفعها أمام عيون الزملاء .. يفلسف اللوحات كثيراً :

— مجد .. قة .. ! .. أنا ـ شخصيا ـ أتعلم من مدموازيل « حشمت » ..

.. وبعد السامر أعاتبه :

— لمَ تبالغ ؟ .. تعطينى ما لا أستحق ؟ ..

.. أم لأنك تعرف أكثر ؟ .. حتى هذه يفلسفها ، ومع أنه الأنضج .. يقول لى فى عذوبة ساحرة :

— الأنثى قبل العشرين أنضج .. والجنس الآخر بعد ربع القرن يفوق نضجها ..

— وحتى لو هذا .. أنت الأعقل ..

.. وكعادته فى إعطائى الجولة ، يرد حبيبى :

— أبداً .. متساويين ..

° ° °

قراءة تحت لوحة ثالثة :

الإهداء : أحبك ، أحبك .. أحب ..

° ° °

.. ويوما قال لى حبيبى :

— « حشمت » .. ! ..

وانتظرت .. ! .. حبيبى .. ! .. قلبى يشاركنى لهفتى ..
« قلها يا أخى .. ! .. » .. ولا يقولها حبيبى ، ويصمت ..
وأعرف أن انتظارى سيطول ..

.. ويرفع حبيبى جبهته ويشير .. ويسيل العرق فوق جبهته ..
.. الحق يا أمى : أخرجت منديلى أجفف عرق حبيبى ، أضمه
إلى صدرى .. ويروح المنديل إلى عينى .. تلتقى عيوننا .. يهز
كلانا رأسه .. تتشابك أيدينا .. وتخرج منا ضحكة خفيفة تبارك
كل شىء .. وترتفع الضحكات .. من أعماقى ترتفع ، ومعى
حبيبى .. و ..

وها هو « حاتم » يا أمى .. قولى له ابنتى تحب .. وأنت
تعرف البنات يا « حاتم » أكدى له .. لماذا لا تقولى يا أمى ..؟..
أنا أعرف أبى .. وربما أطلق كلمة لتصيب ابنته .. لكن ..
المرة المسألة أعمق .. وأبعد .. وافق أنت وأبى .. « هانى » لن
يوافق .. أخى وحبيبى له رأيه أيضا فى المسألة .. يكسر أنف
« حاتم » .. يزجره .. « هانى » أخى يا أمى .. أريده .. أراه ..
أقول له :

يريدونى غصبا لـ «حاتم» ياشقيقى فقل كلمتك، وافصل لنا ..
.. تلغراف والله يا أمى .. أرسله إليه .. أختمه من صحة
المركز .. و :

«الوحدة (...)   »
«ك   (...)   »
«س   (...)   »
«جنـدى م / هانى طلعت   »
«أختك مانت .. احضر   »

.. أى والله يا أم .. الموت بعينه ما تطلبون .. وأنتم فرحى
يا ناس .. ميكروفونات .. ودكك .. و .. وحتى صـوانى
المشاريب .. والقادمون من البندر .. لزفة بنت «طلعت الدرديرى»
لابن عمها «حاتم أبو سالم» .. وقلبى - يا أنا - يحترق والرجال
بحميرهم المسرجة، وبنادقهم المشرعة إلى أعلى، يتواعـدون ..
والعساكر ..

.. «هانى» أخى معـكم حتما يا (بتوع) الجهدية .. أخى
- وفوراً - لحزبى اليتيم يا أمى .. أم استملته أنت خوفا من
كلام الناس .. ويا لـكلام الناس .. أخى طيب؟ .. أنا أعرفه ..
وأعرف أنه يحبك كثيراً يا أمى .. يقبل يديك تقديما منه لولاء

الطاعة . . ويتف بصدره العريض أمامك . . وتضعينه أنت زينة الرجال . . أنظرى يا أم .. يصطف العساكر أمام دارنا .. الرجل السمين ذو النجوم الصفراء يتقدمهم .. كثيرون هم والله .. يليقون بأعلى مقام والله . . لكن – والشهادة لله – الحزن باد فى عيونهم .. حزانى هم .. كأن أخى قال لهم .. أفهمهم بالجارى أمامهم والسمين يتحدث إليهم ، يصطفوا :

– « انتباه . . » . .

. . .

. . هل نحن فى حرب يا أخى . . ! . .

– « بو . . » . . « بو . . » . . « بـ . .

. . غير مقبولة منك يا (جهيدى) . . من قال لهم اضربوا نارآ يا أمى . . ؟ . . تحيتهم هذه ؟ . . ولمن يا أم . . ! . . أنا لا أقبل تحية فى . . فى فرح أرغم إليه زفا . . قولى لهم هذا . . وإنى أرد إليهم تحيتهم . . ولن أخرج . . فقط أرسلى يا أمى إلى بأخى أعاتبه . . أقول له :

– أختك لا تتزوج أبدآ « حاتم أبو سالم » . .

. . وأبكى على صدره يا أم . . أعتب عليه . . أعتب

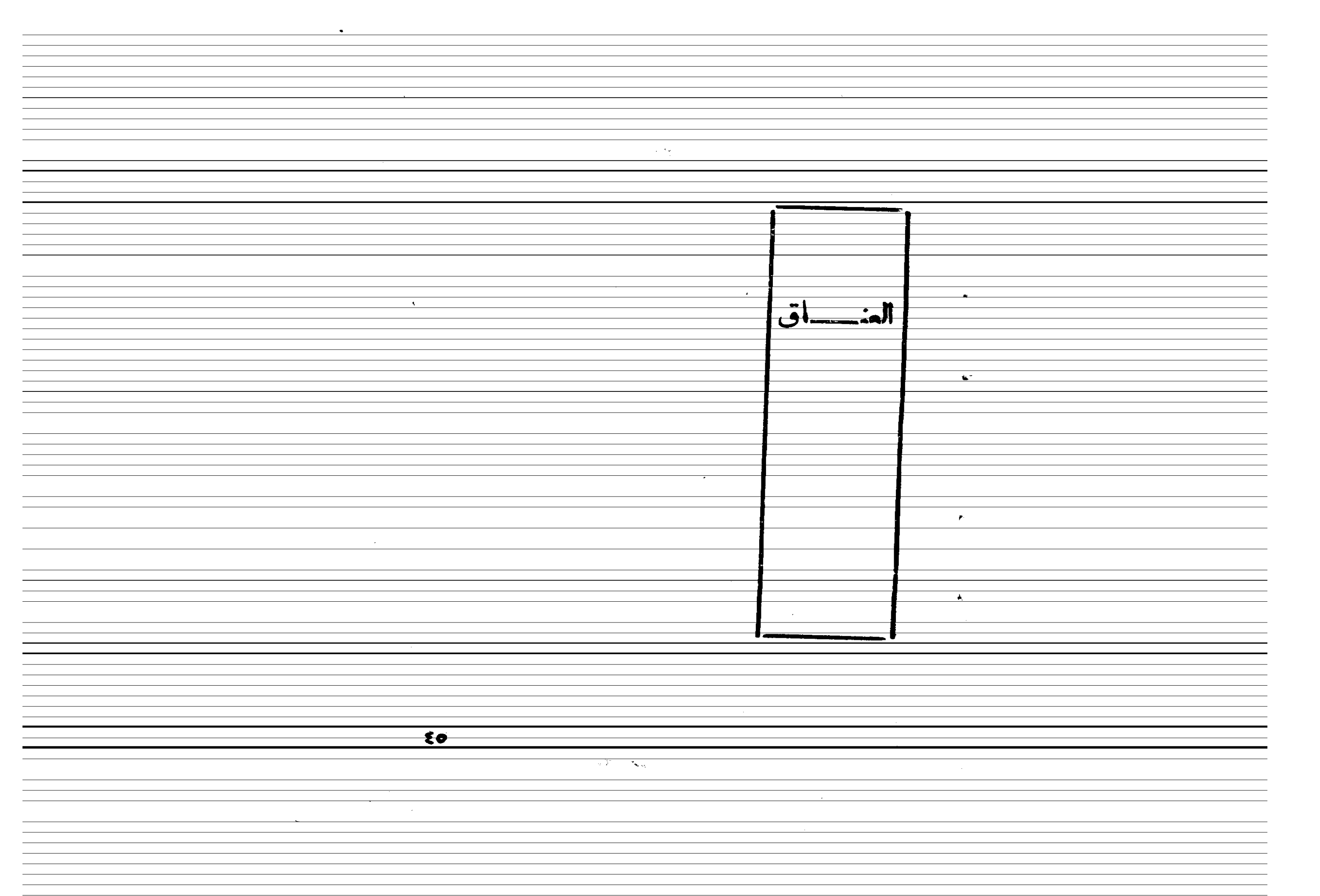
عليه .. أقرصه فى خده وأبكى .. أى والله أنا أبكى" حقيقة
يا أمى ..

* * *

.. وهنا .. ترفع الأم يدها إلى عينيها ، تكفكف دموعات حارة انحدرت بشدة فوق وجهها ، ولم تفلح فى إخفائها ، وارتفع صوت بكائها المكتوم .. وفى سرعة انزوت إلى الداخل.. خرجت وبيدها (طرحة) سوداء كبيرة ، وانفجرت فى عويل حاد .. وألقتها فى وجه « حشمت » .. وتحدق البنت مذهولة .. مذهولة .. وأصوات مكبرات الصوت ترتفع ، « وأن الأبرار لفى نعيم » .. و « تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً » تتمصمص شفاه .. « بل أحياء عند ربهم يـ... » وتطلق البنت صرخة عميقة .. حادة .. مدركة أنها لن تلتقى بأخيها أبداً ..

...

...


العناق

« الانتظار . . »

لكل شيء حتما نهاية ، أي شيء ، حتى الواحد منا نفسه ـ له ساعته المحددة ، وبعدها : « انتهى .. ! .. »

تقولها الأم .. وتطلق آهة مريحة .. « آن الأوان ياولد ..!.. » وتدقق في الصور المربعة في حافظته الجلدية .. تضمها إلى صدرها ترفعها إلى الفم ، تحلف له أن ينهى الموضوع . . ويومها ـ يومها فقط ـ « أستريح ولو في مقبرتي » .. « ادلل أولادك ، افرح بهم يا ولدى قبل الموت . . ومن يعرف المكتوب . . ! » وتقوم متجهة نحوه باسمة : « خلاص يابنى »

. . ويرتمى إلى صدرها . . وتظل الأنظار الحانية متعلقة بمؤخرة العربة ، وتدقق في الغبشة الترابية . . وبالحبيب الغالى تغيب . .

« الخوف . . »

. . وتلح هذه الأيام عليه كثيراً ، تشعر أنها لم تقترب من قبل هذا الاقتراب من الموت . . البرودة الخفيفة تسرى عبر الجسد الواهن ، ترتعش الأم .. يتكربل الجسد .. ترجع لتندس

تحت الغطاء الثقيل . . والبال مهموم ، والعقل يروح ويجى . . .
والولد . . آه . . الولد يجمح . . ومالك يا ولدى والناس . . ؟
والساقية تدور .. والحال يسير .. بك يسير .. وبغيرك يسير ..
والعالى . . آه . . العالى عالى . . والمكن يلف و . . . والمرجيحة ..
والساعة تجر ساعة . . وساعة . .
.. وكلما يأتى صوت على الطريق .. تقوم الأم ، تمد ببصرها
إلى الطريق ، و . . . تنتظر الحبيب . .

« الذى يشغلنا »

. . حجرة المكتب كئيبة . . تخنقه . . لكنها هى هى .. نفس
الوجوه . . الكلام . . الملل . . المط فى سيرة الخلق . . الغمز . .
الضحك الفارغ . . « صفوت » فى وجهه تماما . . النهار بطوله
يكتب إلى المطربة المفضلة إنه هام بها ولا نجاة له إلا بصورة ،
« تذكار » يرفع الورقة أمامه فى فرحة غير معتادة ، يرفرفها فى
وجه « الولد » يصيح فى فرحة طفولية :
ـــ ومضيت الجواب باسمك .. ها ها . . هـــا ..
. . يلوى شفتيه إلى الأمام . . يشمئز من الفعـــلة . . تلفه
« سلوى » بعينيها . . تقوم ناحيته بعد أن تنفض يدها من قطع

الحلوى .. ترمى أمامه بمجلات كثيرة .. تسوىء .. تشير إلى
المكتب المجاور ، الخالى .. قائلة فى برود :
— والشغل .. جنازه برضه ؟ ..

.. يبتسم .. لكن .. لا يرفع إليها وجهه .. ترد المسألة إليه :
« انتم عفاريت ياصنف الرجال .. وتأدية الواجب »
« كل يوم يا .. (وتزوم فى غضب) يا .. ! .. »
.. وتشع دمعة تلمع فى عينيها ، تنسحب البنت لتقبع خلف
مكتبها فى انتظار محاولة أخرى .. جديدة ..

« للعيون كلام »

.. والقلب ما باليد أمره .. لكل شىء ، له بداية .. ومع
البداية تنسج الخطوط إلى النهاية .. والهموم كثيرة .. ومعها
لا تبقى الأيام موسيقى ، تظل الأنفاس مرهفة تعبى .. نشق ..
والأيام طويلة .. مرة ..

و « سلوى » عنيدة .. لا تتعب من تسطير كلماتها الحرجة :
« تريدنى صديقة .. ! .. فلنعقد اتفاقية صداقة إذن »
« ترافقنى ولا تلمسنى .. تحمينى ولكن .. لا تقربنى .. ولا تطلب »
« منى مقـــابلا من نوع آخر .. أحكى لك عن حبى وما بين »

ضلوعى ، ولا تقفز فرحا بى .. أحكى عن حبيب وهمى .. ولا «
« أرى هذه الغمامة السوداء تكسو وجهك . . أيمكن أن يحدث «
« هذا بيننا . . ! . . أمى تقول الصداقة يا بنيتى عطاء متبادل «
من نوع واحد . . وإلى عطاء متبادل من نوعين مختلفين . . «
وتجعل -أنت- بهذا صداقتنا باطلة .. فعندى صديقات كثيرات «

وانتشى الولد لحالة اليأس التى انتابتها فجأة . . وما كاد يحمد الله حتى انفرزت عينه فى التوقيع المذيل به « لكنى أحبك » . .

. . وتغرز البنت عينها إليه فى صمت .. ولا ينظر .. ولم يكن يظن أن الزمان يمكن له الإبطاء هكذا حتى تصير الثوانى شبيهة بالقرون . . أبدا . . لم يفكر فى الامتداد بهذه الصنعة . . ولم يجرب أبدا أن يعيش فى منطقة تتوسط النور ، والظلام .. ويتنهد بعمق « لاندرى من يخدع نفسه ومن يخدع غيره .. » وتعود الألسنة إلى السيرة والخلق . .

« الحكاية . . ! . . »

. . وتتقلب الأحوال ، لكنها ماشية . . وبين يوم وليلة يحدث أمر . . تصر الأم أن يسمع الولد . . الأمومة لها حق . .

(والقلب أحوالة يا أمى له وحده) . . و « العمده » فى بلدنا « أى نعم « عمده » . . وبلدنا نقطة تافهة على فرشـــة كبيرة . . والمكتوب مكتوب » .

. . وتلح الأم . . أى نعم عندها أصل « ومن قال الأخرى جاحة يا أمى »

. . ويضحك الولد . . « الأصل عندنا الملك . . والمملوك كان . ثم . . تعرفى يا أمى . أى والله هـــكذا . . تفرقت الأبعاديات أيامها . . والعمم الكبيرة . . وتمركزت الشغلة . . ودخل العمدة ببنت « السلحدار » . . والحكاية مكررة . . ونبقى يا أم سلاطين . . ! ! »

. . وبين الآن وآن ، تعيد الأم موالها . . وتبقى فى غياب الحبيب الغالى مهمومة . . المرأة تملأ البيت . . تشغل الولد عن أعماله . . والناس وراء الطالع . . وتمر الأيام . . تمرّ . .

« المذبحة . . »

يقفز « صفوت » السلم درجتين ، تتربع « سلوى » فى الحجرة المجاورة . . « مديرة مكتب أى نعم » . . « ومالنا نحت يا بنت . . ! » ولا تكف عن محاولاتها . . وتتزايد الجوابات ، والبنت حلوه . .

و « صفوت » يعلن زواجه . تحتفل الإدارة ، واعلانات . . والتهانى ، و . . . فزت بها يا أنت لتريحنى من التوقيع الوهمى إلى المشلات المعجب بهن جداً جداً . . وأنفذ بجلدى لتتولى كريمة مولى إدارتنا مهمة تسطيرها نيابة عن البعل العـــالى فى كرسيه العالى جداً . . وتمر . .

. . وتبقى « همت » فى ملابس السواد . . واللسان يريد أن يبرح . . ويوم يأخذ آخرا . . واللسان مشكوك . . ونصبح . . ونمسى . . نحكم . . ينشكل اللسان ، ولا تنفك العقـــدة . . و . . ننتظر . .

« البداية . . . »

— « الطريق طويل . . وقلب الأم دليلهـا . . . »

. . ويطرق الولد إلى مكتبه ، يلم آخر حاجيـاته ، صورة صغيرة من حفل قديم لاستقبال العمال الجدد « همت » . . . هناك فى أقصى الطرف ، . . يودعها حافظته . . فى ثبات ينخرط إلى الممر الطويل ، تضحك « سلوى » وتضحك . . تتلاعب بسلسلة مفاتيح أمام وجهه :

— مفاتيح الحبيب . . . ! . .

. . يكتمهـــا « همت ؟ » . . ويهم . . ويهم بالصراخ . .
ينخلع القلب . . تضحك وتزيد من الضحك . . يهتز الصدر فى
ثورة . . و :
— مدسوسة هى الأخرى . . تقارير يافندم . .
. . يترك « صفوت » بسماعات تليفوناته . . المقدر كان . .
والبنت غائبة . . والأم على نار . . والبيت انهدم قبل قيامه . .
ونار القلوب متأججة . . تصرخ القلوب . . والألسنة الواقعة
تهتز . . تتحرك . . تتلاصق الأجساد . . تتداخل . . تتلاحم
الأيدى صلدة مرفوعة فى غير نظام تندفع — فى قوة — مشرعة نحو
الممرات العلوية من الطابق العلوى من الجناح العلوى من الإدارة
العليا . . وتتلاقى العيون . . تنجـــذب . . تمتد الأيدى . .
تتعانق . . تنفك عقدة اللسان . . تنقلب الأم على جنبها الأيسر . .
تهب شاهقة . . تنتظر الحبيب النـالى . . وتقوم إلى النافذة . .
تدقق فى الغبسة آملة أن يطمئنها الله ، خيراً . .

* * *

الذى

عــــلم

الحزن

للقمر . .

التقـــرير :

الثابت ، أن القمر حزين . .
ومساحات الضوء تضيع بين أوجه الحراس
وضجيج السكارى ، وأضواء المقاهي الناعسة . .
وفي كل العيون مقروءة شهوة التطلع إلى ذلك
الذي يمسح الحزن، عن وجه القمر . .

° ° °

. . .

. . . . والثابت ، أن النار لم تعـــد تتأجج مشاعلها فوق
الطريق . . كذلك الطعام ، لم تملأ المكان له رائحة . . . وفي
هدوء سار ، وكان سيره متباطئا . . وصمت . . . . والسواد
يلف الـكون . . يغرق كل ماحوله في صمت مخيف ، أجوف . .
والإتجاهات واحـــدة . . مكسوة بعباءة ليلية ثقيلة . . تماما
كلوحة دائرية شديدة القتامة . . تعترض اللوحة القاتمـــة . .
تحتضنه ، تذوب أمام خطواته المتثاقلة ، البطيئة . . وتجسم له
أيضا مخاوف لعينه، تتكور . . تتصاعد إلى رأسه مكونة ذلك

الشيء الهلامي الذي يتمدد . . ويتمــــدد . . و . . ويواصل
مشيه . . وتتراجع اللوحة منه ، تذوب ، تتلاشى من طريقه . .
والصمت ، هو . . هو . . يملأ جو المكان في تراخ . . والضيق
الشديد يضغط الصدر في قسوة ، كمــــن يصارعه إلى الصرع "
يكتم أنفاسه . . يشد قامته ، يطرح أشباح النعاس في سخرية .

ونفسا عميقا . . ويزفر صامتا . . وآهة مرة مكتومة :

البنت ، أكلتها أعين الغرباء . . ! .

والجسد لايستره إلا فضل الله - تعالى - . . وصدقات الوكالة .
والوكالة ياأولاد لاتغني من جوع . . حتى جلاليبهم كأنها
مغسولة في ماء النار . . ! . .

ويبصق في غل ، وتركب شفة أخرى في مطة إلى الأمام . .
وإنحناءة ، وتجيء القبضة بالتراب . .

وعرف العالم كلمة « لاجيء » . .

وينزلها عن شفتيه ، وتروح اليد إلى خيط يتدلى حول الرقبة ،
يضغط المفتاح في حرارة . . آه . . للذكرى قداسة أبدية . .

ويتلفت حوله . . وتلق أشباح الليل أكفانها البيضاء والحمراء والزرقاء و . . وتخرج من اللوحة السوداء ، تتراقص . . فى جنون ترتفع وتضيع .. وترتفع وتصبح كومة تراب .. وتلعب جهنم الحمراء كلها أمامه ، ويضغط أسنانه فى قوه ليسحق مخاوفه:

صحيح . . لليل رهبة لايحسها إلا من داس عتمته ، وأوغل فى دروبه . . وتتلاعبه مخاوفه ، ودرب الليل عمياء ، ملتوية . .

. . وما بالغريب عنا ذلك الليل ، الحقيقة أننا نستملحه إلى أن ندوس القنطرة إلى الحبيبة . . آه يا « يانا » . . يقتلنا البـــرد والجوع ونموت من الإنتظار .. ولوائح الزيارات ، وكشوف الإعانه . . والبحث عن عالمنـــا الذى يقولون أنه ضاع ، وخرب . .

ويطمسوننا باعانات الدقيق والسكـــر . . وقرارات . . وقرارات . . وكأننا ذلك النوع الغريب من البشر ، والذى يرجع تاريخه إلى ما بعد زمن « الديناصورات » ، وتدور علينا طواحين التشرد ، والإبادة . .

ويبقى الليل ، ونحاول معه . . ويخرجون لنا بمقولات عن التخريب . . وتصبح بالليل سلطان زمانك . وظل عدالة الله على أرضه هذا طبعا — إذا اختل ميزان العدالة . .

ويتسلل الهدوء إلى قلبه ، ويبتسم . في مرارة يبتسم ، ويشق بجسده الشارع أعماق اللوحة . . لكن في حذر . .

— حذر ؟ أى حذر أقصد . . ! . .

فالله وحده خير حافظ . . و « عوده » لايرى . . اللوحة القاتمة جداً تعترض . . كأنما إنشقت الأرض عن جدران قاتمة تقترب من التلاصق ، ترتفع ، في بطء ثقيل تتلاقى ، تضغطه ، تغرقه في سوادها وتدفع بالأشباح الملعونة لفوق أكتافه . . وصدره . .

وآية الكرسي و « قل هو الله أحد . . الله الصمد . . . . ولم يكن له كفواً أحد . . »

ويمزق الصمت نباح . . والنباح مكتوم . . وأعيرة نارية بين الفينة والأخرى . . . . وأعـــيرة . . ونباح . . ويلعن

الحراس القساة . آه لو يبصق فى وجوههم . . ! الحق . . حتى
الكلاب ينالها الأذى لأنها تأكل من رزق الله . .

— مم تأكل إذاً ؟ . . لا بقايا غزال مشوى. ولا العظم فى
الطرقات صار ، ولاهى أمام أبواب (مغندقة) على آخرها . .
و « الطاق » ضنّ وجوده ثانيايا (هووه . . !) . .

. . وتروح اليد إلى الخيط ، والمفتاح ، . . والذكريات
المقدسة . .

ويواصل سيره ، والذكريات تلح أسفل غطاء الجمجمة . .
والثقل يتعذب . . وتأتى الشمس حزينة ، تنرش على الطرقات
دموعها . . ينظرون باشفاق إلى البعيد . . ومع التمر يدققون
فى أشياء . .

ويطلون علينا :

« معسكرات وكالة غوث اللاجئين . . »

الموقعــة :

— أخى . . لماذا يضحك هؤلاء . . ! . .

وتأخذه رائحة غريبة نفاذة.. يرد على زميله فى الليلة الماضية :

— يغتصبون أنثى ..

— علناً .. ؟ ..

— يا أخى.. الأخلاق خرجت ، صلينا عليها صلاة الجنازة ..

— ونحن .. ؟ ..

— فى طوابير الوكالة .. ننتظر ..

ويندفع المسكين كثور هائج ، ويسقط قبل أن يصل إلى واحد منهم .. والحراس .. وتنهال الأحذية فوق رأسه .. ويأكل — وهو يتلوى — من التراب ..

وبعد الفعلة طوابير .. و :

— نكران جميل .. هه ؟ ..

ويلعبون أمامنا فى صدور النساء ، تطير (الطرح) السوداء .. تدوسها الأقدام الثقيلة .. وبنادق الحراس ! .. ويصرخ أحدهم :

— كلاب .. مومياوات قذرة .. ! ..

.. والدقيق والسكر ..

— الحريم أولاً يا أولاد الكلاب .. ! ..

وتقتلنا الفعلة .. ماذا يبقى حريمنا عندهم .. ؟ .. وليلا

تجيء .. تتنجل العيون ، تخضر السنابل فى أقسى التراب .. تعد أم ولدها .. تحط عصفورة فوق يد ، آمنة .. يصير الحال غير الحال .. وطلقة .. وطلقة أخرى ، يقرأ فيهـا أسماء الصحابة وآلاف الأطفال تلوح ، ترسم بأذرعها الصغيرة أوجه كثيرة .. تخط تحتها ، والشهداء عند .. ، آه .. عند ربهم .. تذكرت .. ونباح مكتوم .. ، يرزقون .. ، .. و .. ونباح .. مكتوم .. والخاطر يرسم فكرة العودة .. قاذفات البارود فى أيد الحراس قريبة ـ لا شك ـ منه .. حتى لو بعيدة بعض الشيء ، فالطلقات نفسها تقرب ..

والطلقات تعنى الوقوع أكبر من احتمالات النجاة..والإصابة معناها العرض الصباحى ـ والله الحارس ـ للعيون ، والطير ، والاعتبار .. العملية إذاً أكبر من زيتونة خضراء توضع للمولود قتلا للنحس ، أو لتأكل البنت .. وتقاوم ..

وأدار رأسه إلى الخلف مرات ، يتحقق من شيء .. لوحة السواد قائمة .. والخيـام ملفوفة داخل اللوحة ، القائمة .. يعرف داخلها ، يدفئه جسد البنت فى واحدة ، تلهبهما العيون ، تقول .. يتزاحمون حول طابور الوكالة .. وفى الليل تصرخ البنت فى خفوت :

مانشيتات الصحف القاهرية تحذر : « يافا » تتعرض لعملية
تهويد محكمة .. تصرخ البيانات ، تتكرر : تل الزعتر يقاوم ..
يضرب الأرض بقدميه ، أعتنه الزيتونة من (طلعـة) ..
قال لزوجته :

— أسرق .. ! ..

وتأكله الحسرة .. و « سـلمى » .. وعيون الغرباء وصقيع
الخلاء المميت ..

وأحزان الزمن الغادر .. تتزايد دقات القلب .. يضطرب ..
فعلا كان يسرق ..

كأن البيارة ما هي أب عن جد له ..

— وكأن أبي ما كان .. وكأن لا شيء كان عنه لنا .. أبداً ..
ويضيع الرجل بملامحه العنيدة .. ولا اعتبار لما كان .. لكن
ملامحه لم تغب - أبداً - عني .. للأبدية محفورة في داخلي .. في
الصدر كامنة والقلب والعقـل والدم والشريان التاجي وأوردتي
وأسفل جمجمتي لو أزيح عنها الغطاء العظمي .. ووراثية أحملها
في الوجه والعينين والوشم ..

.. من البيت اقترب ، والبيارة .. وكان صغيراً ..

— وكان أبي يقول لي دوما : سماسرة الأرض حمير .. بهائم
والله .. لايعرفون أننا بدون
أرضنا لا شيء ..

ويشير مؤكداً :

— وهي عرضنا يا ولدي ..

ويقسم على ذلك ، ويتمسك بالعرض الكبير ..

— يا شيخ « جاسر » .. !! ..

ولا يهب مندوب الوصاية أرضاً ..

— كلمة واحدة .. لا أرض ولا تمر ..

— بثمنه يا رجل ..

ويغلظ في قسمه وأن :

— الدين المعاملة يا أولاد الـ ..

ويروح واحد وآخر يجيء . . و . . الآذان في ماالطه و :

— الكلمة كلمه .. خلاص . .

وانطلقوا — الكلاب — إلينا ، وجاء أعلى منزلنا أسفله .
وشاء القدر أن لايختلط بالتراب سوى جسد أبي ، ونبقى وقد انقطعت صلتنا بهذا العالم . . الجائع . .

والتشريد . .

وكشوف الوكالة . .

. . وصفوفهم السرّية . . وتذبذبت خطواته . . « ح . س

خفت » اللغم وجهه ولم يعد ، شاهدوه يجر « . . هـا . . » ويتجه إلى داخـــل موقع قريب . . وبعدها « انفجار رهيب . . » . .

و « هـ م . ت » ، كان يعشق حبيبته وتواعـــدا على الزواج ، وفوجىء بدعوته لليلة الحناء . . !

لطشها « صفوت » . . والآن . . لم يعرف « عوده » من الذى خان . . :

البنت المهووسة أم « صفـــوت » . . لـكن الثابت أن « هـ . م . ت » عاد جثة خالصة فوق كتفى « صفوت » ، وبداخل سترته منـديل معطر وورقـة بداخلها (عفريته) للبنت وهى تضحك . . وفوق الورقة كتب بخطه الـكوفى :

« أحبك يا (. . .) »

. . ويصر أن يشترك الليله . .

ـــ ابدا . . اوامر يا « عوده » . . راحة لك الليله . .

وتصفر الريح تعاتبه .. « راحة هذه أم موتة عار .. ! .. »
وطلقة أخرى .. يزن الرصاص .. واكثر من عشرين عاما
وهو يزن « ومن الإعتياد عليه كالانغام صار .. ولن يقولون
لنا على أنغام (داعونه) :

— أرضكم ياأولاد .. ونرحل نحن إلى البلاد البعيده ..

.. وقادم الشمس تروى ..

وتتقلب النفس حزنا .. ويرفع رأسه فى اللوحة القابضة ..
ويلعن النحس ثانيا .. وثالثا .. ويرسل نظراته المدققة إلى
البعيد واداً لو يدفن النحس إلى السحيق ، تجود السماء بماء منهمر
تغسل الارض عن ضمائر جديده ..

الضمائر أهم مافى الأمر ..

قديما نصحه معلمه قائلا :

— تزيل الجبال ياولدى أن أردت ، فقط إرادة وضمير ..

— الجبال يامعلم .. ! ..

— المستحيل ياولدى لايوجد بعد ..

و .. وتنفيذا للنصيحة بارت تجارتنا يامعلم ، وقلت لى

الأمان ، وآمنا للغرباء فى « يافا » وقلنا مقولتك : « الكلمة كانت فى البدء . . . » . .

استفسرهم ، ردوا بعربية ركيكة :

— ما لنـــا يا خبيبي . . ومال النخس . . النخس . . اسأل انت النخس . .

— النخس يا خبيبي . . فاخم انت . . النخس . .

— النخس . . هه . . ها ها . .

— هـا . هـا هـا . .

— هـــا . .

. . ويرتطم جسده بالأرض ، يهتز بعنف ، والجـــو لا يسمح بالوضوح كما يجب . .

— فعلوها الـكلاب . . ويضحكون . . . ! . .

. . ويستنشق فى عمق ، يرمى بخاطر النحس هذا . . ويدقق فى (الـكحل) . . ويشد قامته مع آهة مكتومة . .

ود لو (يجهر) بأعلى صوت فى أرحب ميدان أنه يسرق من بيارته الى أن يرفع الله قانون فوقها . . ويوجه الى الظلام

يداً .. تتكور قبضته .. والريح .. والإنتظار .. و « سلمى » والمطر .. ووجهه فى بيارة وهى — شرعا — له .. تروح اليد الى الخيط فى رقبته .. تتدلى الى المفتاح المعلـــق .. والأرض التى ترعرعنا منها لا ننساها ، وكان لنا فى الطـرف هذا بيت و .. وعريشه صنعتها بيدى هاتين لو لدينا خشية لفحة الشمس ، واستهما الأيام معنا الغربة الى أن اسكتتها حروق « النابالم » .. وتجرعت المسكينة كأسها العلقم ..

وصرت بلا معنى ..

وما معنى غرباء فى أرض جعلوها غريبة .. ! ..

ويلوى شفتيه ، ويعود الى الوجه الصبى . آه .. « ساطة » صار جسدها مكشوفا ، والصدر ملاذ العيون أمام طوابـــير « وكالة غوث اللاجئين » .. تجيئنى محملة بالسراويل المشجرة ، والقمصان ، وتبغ الميشة ، وتأكلنا الفعلة فى أنين مكتوم ..

تقول جارة غامزة :

— وجه « سلمى » قمر ..

وتعلق أخرى :

— بختكم .. ! ..

وعاشرة . . :

— حتى تبغ الهيشة . . ! ! . .

والدقيق ، والسكر .. ويورق الحزن فى وجهها ..
يطرح .. وبين الخوف وشهوة البكاء ترتمى البنت ، وتروح فى
راحة البكاء .. والدموع .. وتردد البنت قسم العودة ..
وساعتها يميل اليها « عوده » .. وينطرح أرضاً ..

الوصـــول :

.. « الخبز بالموت ، والموت بالشهادة .. » وتتغـــير
الاشياء فى زماننا .. اللعبة سهلة .. يتخطى الأسلاك فى مهارة
كانت البيارة بلا أسلاك مكهربة والأبواب مفندقة على الرحب ،
والسعة ..

ويتسلق شجرة .. أول شجرة تصادفه ، بيديه يحتويها :
تستند الرأس إلى الجذع ، يهم .. تمتـــد الأيدى « سلمى »
الاف الأيدى .. ويجمع فى نشوة رهيبة .. مثمرة تلك الشجرة ..
أخضر أسمر .. لا يهم ..

وتعمل أسنانه فى زيتونة كبيرة فى العين حليت . . مره . .
استملحها . .

همس لنفسه مطمئنا :

— مستترون نجىء يا « يافا » لنغسل من الغرباء ترابك . .

ومن السراديب ، وأى شىء . .

ويمد يده . .

وطلته . . و انفجار رهيب . . ومالة نارية تبرق ، ونباح
مكتوم يكسر الصمت المطبق . . والف الف سكين حادة تمزق
الصدر . . وآهة يمتد الزمن . . يطول . . وآهة وآهة . .
وهل يمكن للزمن أن يمتد بهذه الصفة . . ! . . الـــدقائق
دهور كاملة . . وتـدور الريح . تخترق المسافات . . تأتى
الـكلمات من بعيد يغطيها تصفيق . و . . :

— خرامى يا خبيبى . . هه . . ! . .

. . ويلعن الـكلاب — الحراس — . . يقتلون خلق
الله ، وستار يا ليل . . يسقط . . يتكوم على نفسه ، تتشقلب

الدنيا على أم رأسها . . تدور . . تموت يده فوق طرف ثوبه
والنار فى الصدور متأججة . . يزمجر الرعد فى قوة . . تبرق . .

يصرخ من ألم :

— ليت ولدى من هذا العالم الظالم . . الجائع . .

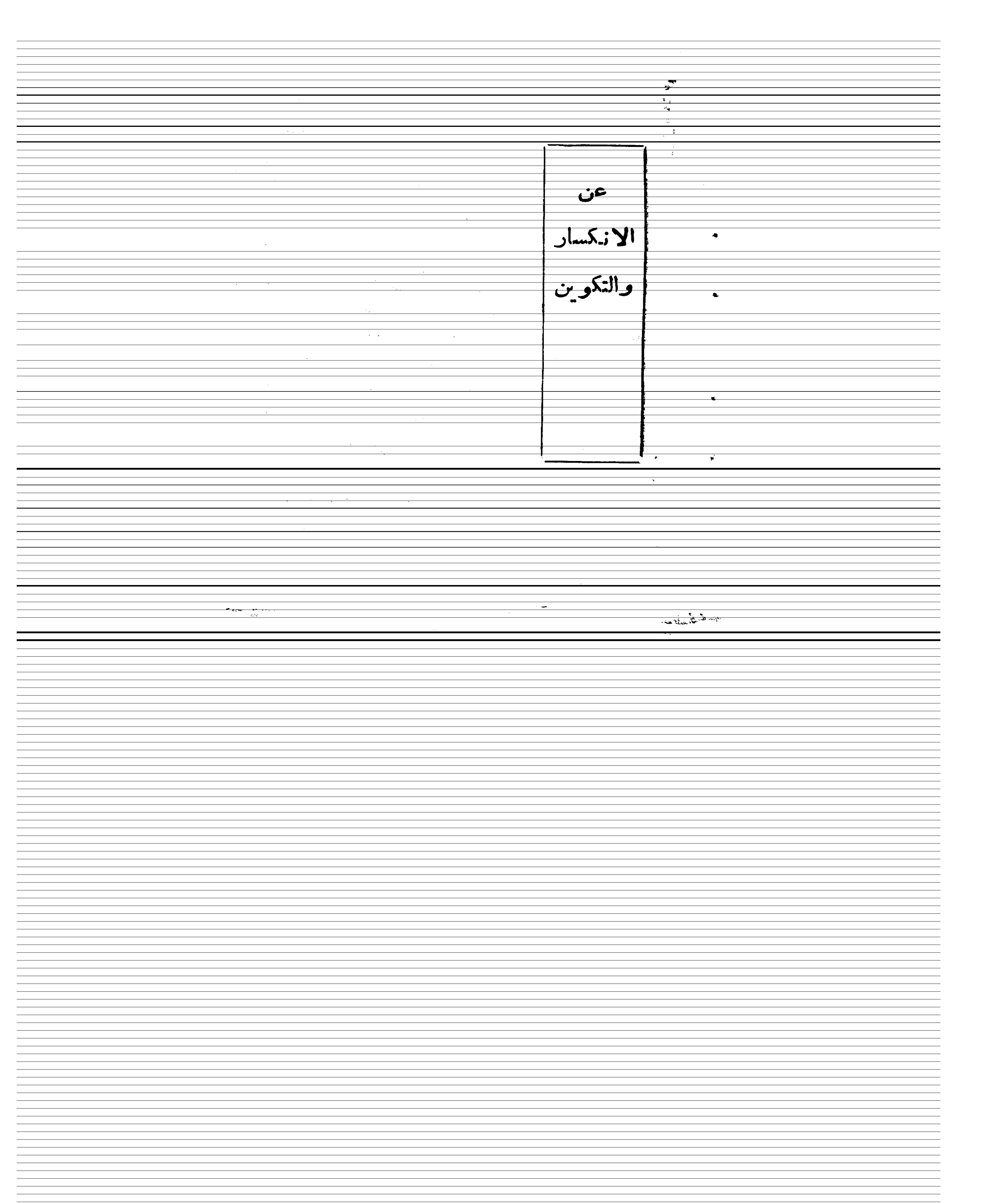
والمولود حنى ، والحنين يجـــرفه . . وتنتظر « سلمى » .
وطويلا تنتظر . . تحضر للقادم وعداً . . وآهة ميتة . . ينقلب
ثانياً على وجهه . . فى صعوبة ينزع الخيط المدلى حول رقبته ؛
تشديده على المفتاح العتيق ؛ تموت عليه . . واختلاجه من
الضوء ؛ . . والمقاومة ، والسائل اللزج ينزف بحرارة ، يتدفق
فوق الصدر الطينى ، يتك المفتاح فى الصدر ، والسكاكين الحادة
تمزق الصدر المثقل إلى آلاف آلاف الأجزاء . . تسقط
الرأس ، إلى الصدر الطينى تسقط ، تلتصق الأذن بالأرض ،
تنبض .

. . والضحكات من حوله، تتلاقى، تلتف وتمايز فى أذنه عويل رفيع
. . وآهة خافته . . و « سلمى » والقادم ويوشى له العويل الرفيع بقرب

هطول المطر .. «وإنفجار» ..و« انفجار»و .. اغماءة طويلة ..
وواحدة ترمى حشيشاً أخضر تحت قـدمى إمرأة ويحدث
(هرج) فى خيمة بعيدة ..

وصرخة تشق عمق الصـدر ، وتتوالى الأصوات ،
و .. المباركة ..

* * *


عن
الانكسار
والتكوين

. . . صيحاتك صيحاتى . . شىء أسطورى ، يدفع فى نفسى الرغبة . . أتقسم

. . يبذرنى جنبات الأرض الأربع . . أرحل فيك انبلاجه عرس ، فانفتحى .

. . كونى شارة عرسى . .

وتدوى الساحة ، لا أرى أوتارى . .

— أضرورى تتكلم ؟

— يخنقنى الصوت . . أحاول . . لكن . . !

. . تنصرف الضحكات ، تشيعنى أنى : « صرت الدور إجادة . . » . . أكحل عينيك ، أرسم وجهك . . تتراقص فوق الصورة مداً وميلاداً ، تتخلق نطفة ، فتصير النطفة علقة فالعلقة مضغة ، تشتد عظامى . . أصرخ :

— أنك قدرى . .

تترك أيديهم شارة : « أنك تكذب ياولدى ! » لكن . . آه . . رأسى ، متعب . . فاجمعينى من بلاد الله فالأيام شحت ، جعت جوعاً ، مت حباً .

فاحتوينى .. وابذرينى حصبة التربة تكويناً جديداً ..
فى ذرى التكوين المسار وإعصار ومنه الريح تأتى. فالولاده ..

• • •

... أفتح — مأخوذاً — نافذة القلب .. آخذك إلى
الزمن الراحل فينا .. نذبح هذا الجائع عطشاً ، مغتربان
التقيا .. نصق عانق نصفه .. نتجسد
تنتفض خلايا الجسد الحى ، تشتد الرغبة :
— آه يا عينيك .. ! ..

.. ثم .. بالصمت ألوذ .. والمعنى الزائد يدفع فى نفسى
الرغبة أن أرفع اسمك من وسوسة الأقران .. أغمض عينى
إلا عن هذا الممتد بقلبى
.. تنظر حين بداخل شريانى .. أتمدد فيك .. تضميني..
بالنبوءة تملئين القلب حباً واحتواء .. ترفعين الوجه أن :
— أنى مباهية بطلمك فاركب جوادك ، نشقى
بالخصوبة .. و ..
.. وأنى أنا المولود والمنذور . للأيام والآلام ، وأنى

أموت مراراً ولكن سأبعث حيا بكل النفوس ، وإنى بنى البشارة . . أمد هواى بقلبك ، سر طانيا يتمدد . . وفشيئاً يسرى الخدر بجسدى ، وتجحظ كل العيون إلى المعجزات ، وأن . . :

— يا سيدنا . . ! . . فالجبن أمير اللحظة . .

* * *

. . لاترى الشفاه بالسلام . . تحضن عينى صوتك . . ينطلق القهر الأرعن ، تتفجر العين ينابيعاً ، تتآلف ، والنيل امرأة حبلى ، تصرخ . . والعاشق ، والمعشوق . . وعينى عليك . . وخير من كل كلام الصمت . . تمتد اليد إليك . . تجيء . . نقول ما قرأناه فى كراستك الصغيرة ، والموج ، والمد الأقوى ، والبيت ، والرجل الكبير . . و « دعنى . . و . . « اتئد . . « انطلق . . ! . . » والقلب مهموم حزين . . والأسوار ، ودوامات رعناء تنثرنى . . واشهق :

* * *

.. تسحب أمى أوراق .. يتشكل رسمك ضوءً نورانيا :
وجهك محمى ، وضمائرك دروع .. وتكون الدلتا سيدة الشرق ،
وتغزو روما .. والتاج عليك .. والعادون إلى القدمين ..
تحركنا أثواب الجوع ، وأنك ظلى .. وتشير فى فرح أمى :

— أعرف عشك يا ولدى .. تتذكر ؟ ..

— ... !

.. وتدق الصدر فى فزع ، تصرخ عاتبة :

— ولدى .. هل أنفاس الحب ستزهق ؟

.. وأصارحها : فوق العرش الحجرى جاءت ، أبصر فى
عينيها الحب .. و .. ، ..

.. تمهلنى أمى .. أتململ .. يغرز إبرته الرجل فى فخذى ،
ينصحنى :

— أنك أرعن .. ! .

.. تتراقص الصور أمامى ، تهتز .. تلف .. تصنع
دوائر تبعدنى عنها .. من الهدف اقترب ، والعالم فى يدى ..
تدغدغنى الصور المتمايلة .. تأخذنى .. اتمايل .. وأنا داخل

دار ، اطلب يداً ، أبحث عن وردته ، تتبعاعد ، يتخاطفها العليون . . أرتد وحيداً . . أتعبد فيها ، والأخرى تتعذب . . لكن . . لا ننسى . .

. . تتلاقى الصور ، يضيق الكون « اينل » يتطاح « بابل » . . و « التلق » تحط بجوار السور العظيم ، يندهش الصينيون ، بين أصابعى أضغط الكون ، اكوره ، أشيعه مع بصقة . . و . . رغما أتحرك . . بجنونا أخطو ، وتلحين بذاكرتى ، والمدن رسمناها فاصلة فاصله بين الابقاء وغيره . . أنظر . . لا ترمى الشفاه بالسلام . . و « الضغط » ، والمأساة تطل بعينيك بأن العملاق كبير ، لكن : « لن يجنى شيئاً » . . !

. . يشتعل الحلم بصدرى ، أنهض . . آه يا « كامس » . . أظهر خوذته ، ينمك الخط الثائر : « من يسوس المهرة يمتسطيها . . من ينجح فى هز القهر الأرعن ، يركب . . من يرمى فوق الظهر الوزر ويبحث . . سيف اليزن ينادى : « أسرار الليل بهذا » . . ويهز السيف . . »

« والمدينة بالأبواب المائة مشرقة » ، « أحمس » فوق العربة ، والعربة ذات جياد . . المهر الرمادى أرعن ، أمد شعره ، إلى

الخلف أطرحه مباغتة .. وبين الأقدام المتطوحة يمينا وخلفا تنفرج الزاوية ..

* * *

.. فى قوة مفاجئة تندفع العيون .. تنغرز فى اللوحة الكبيرة تندفق الأجساد متصببة ، والعرق ينز ، ورائحة كريهة .. و .. اللهفة .. تختلط الأجساد ، ترجع تحوى ، تحيطنى .. اسورة تماما .. فى بحر من القبلات اتلاطم .. أنسحب لداخـــل نفسى .. ترتفع الدهشة .. تلتقى العيون ، تنعقد الحواجب ، يتدبب السؤال الدهش :

— .. ؟

ويتوهج القلب الدقيق الملاح .. (...) .. ينفلت الاسم من بين الشفتين ، اضغط الحروف جيداً .. تحرقنى الكلمة .. تحدقين فى العينين .. متسائله ؟ .. !! .. أنت .. !! .. تسكننى عيناك .. تشمين فى البعد احتراق القلب ، وتقاسيم الغربة تملكنى .. أسدد راية حلمى فى وجه الظل ، ومحوطاً بالأصوات المغمورة بهجة أشهق ، وفى عمق أشهق .. ويرتفع الصدر .. تندفع الأصوات تندفق ، تتقاذفنى الزنود محييه ، يتمرك الوشم ، يتساند ،

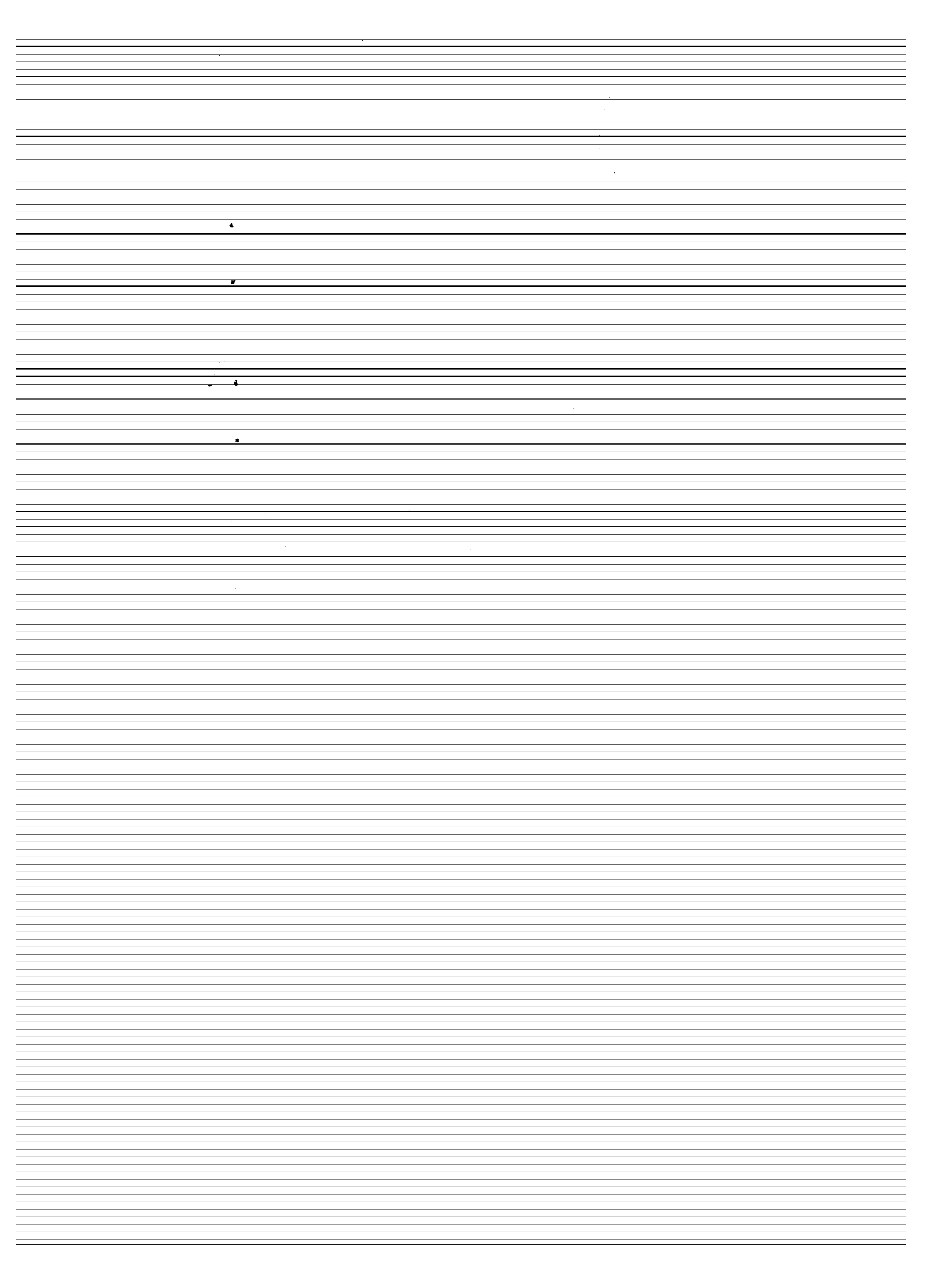
والصفوف طويلة . . طويلة . . والحناجر تدوى . . وفى عمق تدوى ؛ والساحة تتسع .. يتكور الصدى فى وجه الفضاء اللانهائى يتضخم ؛ والإيقاع شجى ؛ والترانيم « بشارة » .. ! .. تطرقع الجياد .. والناس تلوح .. تهتف أمى :

— إن الأعداء اندحروا ..

.. لكن ما الهكسوس انمحقوا ؛ ولا المدنية ذات الأهل بآمنة . . تحلف أمى . أحلف . . تغلظ . . أرمى يميناً بالله ثلاثة .. و — رغماً — أسوى الخوذه فوق الرأس .. وانهض .. تصهل الجياد ، أقفز ؛ نتناحر ؛ تنعقد الغبشة الترابية ؛ تخبط وسواسه على صدرها ؛ يسعل آخر مصهللا ، يروح فى صب ويجىء بين فخذين رحيبين ؛ يضم جاو نصفه ؛ يندس عار تحت الغطاء ؛ يسقط فحل على ظهره فيزوى ما بين عينيه دافعاً زوجته فى صدرها ؛ يزوم واحد فى غل ؛ تتجه الأنظار مدققة ؛ تتقشع الغبشة شيئاً ، والباب كبير ؛ والولد مدلى من السقف العالى ؛ والرأس مائلة — يا عين الأم — فوق الجسد ؛ والجسد طرياً ما زال ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله ، ومحمداً رسول الله ؛ وبومة كبيرة تصرخ تاركة فى المكان رهبة حقيقية ؛ والعياذ بالله ؛

وعشاقاً نهيم ببابك الأملى هذا .. فاقبلينا .. والملامح انتظار ..
والشهيق فى الصدور .. يرتفع .. وتتداخل الكلمات ؛ والحركة
تبدأ فى ذلك الجمع الكبير ،. والموج يرتفع ؛ تتمنجل العيون ،
تتطاول الأيدى .. تتلاقى .. تمتد .. وفى قوة تندفع إلى الباب
الزويلى ،، الكبير ..

* * *



انها

آعوام

الحب..

والميلاد..

...

... توالت المارشات العسكرية مرة واحدة .. !

... غطى اللون الأحمر مكتسحاً كل الألوان الأخرى المختلطة والباهته .. أصبح — بوضوح — فارس اللوحة ..

شكر لها ملاحظتها ، مد يده إلى الولد الصغير .. عطر الحبيب الغائب ، وبقايا من أحرق القلوب على عيدانها خلفه ، وضعه على ساقيه الممدودتين تحت الغطاء ..

.. اقتربت « ليلى » لم تنتظر أن يشرح لها نظريته فى إعطاء الجولة — بوضوح — لواحد على مساحات اللوحة .. العادة لا يفعل ، تلفه بعينيها المفعمتين بحزن امتد من أيام ابريس إلى يوم غاب فيه الغائب ، يطلب إليها أن تهجع إلى فراشها .. لكن لا تتركه إلا بعد أن يتمطى متمدداً ، وتكون الساعة ـ وقتئذ ـ قد بقرت بطن الليل موغلة فى شقة الآخر .. تطبع نظراتها الحزينة فوق صورة الحبيب الغائب ، والمعلقة فوق الجدار ، وتدفن نفسها ـ حينذاك ـ تحت الغطاء الثقيل ، وتنتحب فى بكاء مرير سنوات طوال ..

والحزن لا آخر له ..

ــ بلا توقع ــ أشار إلى اللوحة كمن يخاطب نفسه :

ــ الأحمر ثورة .. والأصفر أم الثورة .. والأخضر نبت الثورة ..

ــ والأبيض ! .. الأبيض أغنيتي .. لكن لم تتمخض عنه الآية بعد ..

.. طوحت بنظراتها ـ الذابلة ـ إلى الصورة المجللة بالسواد :

ــ ومتى يا حبيبي تتمخض عنه الآية ..؟

.. ويقطع الموسيقى العسكرية صوت يعلن عن بيان عسكري صادر .

.. ويستمر هو :

ــ آت لا شك . لكن . الناس جوعى الاشتياق ، وهكذا طبع البشر ..

.. وتميل ـ فجأة ـ إليه .. تهزه .. والفرحة تتساقط دموعاً من عينيها :

ويسقط الحامل باللوحة ، يشق الأحمر خطاً عريضاً وسط الألوان المتداخلة الأخرى ، والباهتة ..

— أنصت يا « حسام » .. عبرنا .. ! ..

وتزوغ نظرات الصغير بينهما ، احتضنته ، وتدفع « ليلى » برأسها بين يديها وانتحبا بصوت مسموع :

— لم أعبر خائنك يا حبيبى كما واعدتنى يومها ..

ونداءات مجلجلة ، كثيراً ما رددها ، وتنتقل نظراته إلى الجهاز الكامن فى ركن الحجرة ، ويبدى الصغير تخوفه ، تضمه « ليلى » إلى القلب .. ويتسع الصدر إلى الضنى ..

— ما هذا يا أمى ؟ ..

ويقول « حسام » :

— أنت لا تعرف العبور يا سيدى الصغير ..

.. و « الله أكبر » ، « الله أكبر » .. واقتحام سريع .. وصرخات .. وانفجار .. و « لا إله إلا الله » .. و « آه » .. وآهة عميقة .. وجنود ليسوا حليقى الذقون يرفعون أيديهم برايات بيضاء ، والمذيع التلفزيونى يصرخ نصراً :

— عبرنا ..

وها هم أسرى جيش - قالوا - لا يقهر .. !

— أسرى .. !! ..

.. وانتفض .. مال إلى الصغير على صدر أمه يتحسسه مراراً :

ــ أحمد .. !

وينخرط ـ للمرة الأولى ـ ببكاء[1] ..

.. أمر المر أن يبكي الرجال .. منذ زمن بعيد يذكره جيداً مات ذراعه الأيمن « جاسر » .. لكن « جاسراً » لم يمت في عرفه .. كان سبع الرجال ، خلق للحق كأنه .. وكل ما يعرفه أن الأوامر كسرت شوكته .. ومع هذا ـ وحتى بعد أن فات الأوان ـ عمل ما لم يعمله الرجال .. لم تقنعه أوامر الانسحاب .

ــ معتدى علينا ياعالم ، وننسحب .. ! ..

ووقعنا معاً .. كان يلمني بنظراته ، حتى ونحن في يد غريبة ..

ــ الحنان الزائد يا أخي يثبط عزم الرجال ..

.. ويتعذب في صمت أخرس ، كمن يصرخ في :

ــ لا أقدر ..

ويهمس لي :

---

(١) قالت أمه أن ولدها تغير كثيراً منذ فقد شقيقه ، وأنه أصبح بادي الانفعال والحزن ، لكنه ـ والشهادة لله ـ ما بكى أمامها .. أبداً ..

لو عدت يا « حسام » فعليك بـ « أحمد » .. لكن « ليلى »
صغيرة ، دعها تتزوج .. قل لأمنا هذا من أجلى ..

وأتمزق من أجله ، يأتى الحارس ، يغمغم بكلمات لا
نفهمها ، وعندما يقتله صمتنا يصرخ بلكنة غريبة :

— حسن .. سأحملكم على الصمت الأبدى ..

• • ويدقون على بطوننا بأحذيتهم الثقيلة .. يأتى واحد
بنجمة سداسية كبيرة ويلصقها على حائط ذلك الاسطبل العفن —
والذى جعلوه سجنا لنا — .. يضحك فى سخرية :

— الآن .. من : ناصر أم .. أم اسرائيل .. هـ ؟ ..
هـا هـا .. هـا .. !

• • وتأكلنا الحسرة ، يرشون فوقنا نجوما سداسية
صغيرة .. و

• • ويتأفف « جاسر » ..

أنا أقول لأخى الأكبر .. ! .. ضبط النفس مطلوب يا
« جاسر » ..

يقهقه شيطان أحدب

— سقطت مصر ..

. . يا كلب العالم ، لن تسقط أبداً مصر . .

. . وحركات صبيانية ، يزأر أبوك يا « أحمد » يعلن عن تحطيم قوانين معاملة الأسرى على أيدى كلاب نجسة . .

ـــ اعقل يا « جاسر » . . ! . . اثبت . .

. . وها هى معاملة الجرحى : طبيب مصوص ، يتجه لواحد منا ، يدخل ابرتين غليظتين ـــ متصلتين بزجاجة صغيرة ـــ أسفل فكيه . .

ـــ نأكل . . ؟ . . ويقذفون ناحيتنا بالفتات ، لا أحد يتحرك . .

ـــ نعم . . وأيضا لن نشرب . .

ـــ اضراب ؟ . . يا أولاد الـ . .

(مرة ناولوا واحدا منا جرعة ماء ، وبعدها بدأ يتقلب أمامنا كسمم التورج . . ثم . . انتهى)

. . ويولول أسماعنا جرس مزعج ، متقطع . . بعدها يندفع ناحية كل منا لخل يحمل خرطوما قذرا ، يضعه ـ بقسوة ـــ فى داخلنا ، ومعلنا عن نفقات كثيرة تكبدها لجيش الدفاع الاسرائيلى عن اطعامنا . . وترتفع بطوننا كثيرا ، يقفـــون

بأحذيتهم الثقيلة فوق ظهورنا ، يدقون بأقدامهم . . تندفع المياه من داخلنا . . يصيح كبيرهم الذى علمهم اللعبة .

— اننا كرماء معكم .. اليس كذلك ؟ .. هه .. ! ..

بغتة تصرخ « ليلى » :

— رجال أهدب . . هل هذه هيئة محارب .. !

. . وكل يوم يا « ليلى » ، صرير فجائى مزعج للبـــاب الكبير لسجننا ، وطلقات سريعة فوق رؤوسنا ، آخر ينادى أسمين ، اى أسمين ، كل يردد الشهادة لنفسه ، يقتادونهما خارج المكان ، وطلقتين . . وصرختين مكتومتين . . والى يوم آخر ونموت هكذا - مرات كل يوم ..

. . والانسانية ؟ . . وأدت يا « ليلى » . . وبأى ذنب قتلت هذا ما لا أعرف . . و « جاسر » يرمينى بنظـــرات يائسة ، وجرس ، وطبيب ، وخراطيم .. وأحذية .. وداخلنا . . و . . يمد الطبيب المصوص يديه المعروقتين الى فكى جاسر .. تعمل الإبر فى جسدى .. فى بحر عمينى .. أدور . . وأدور . . وتستقر

قدم ضخمة في صدر ذلك الوحش لتدفعه الى الباب الثقيل ..
وتقوم القيامة بعدها ..

.. تتفتح طاقات الرشاشات علينا .. ثم :

— ها .. ها .. عودوا لتحاربوا ثانيا .. ها ها .. !!

.. وعربات الصليب ، ونقاط التفتيش و .. وينزف أبوك
يا « أحمد » ويتوسل الينا أن نرحل ، .. ننفذ من الغابة بجلودنا
ويصمت أبديا يا ولدي ..

.. ويهز الصغير دامعا :

— وتوسد أبوك التراب مهزوما يا « أحمد » ..

.. ويصرخ الصغير ، وتصفر قوارب الصيادين .. و ..
ووحدي أبقى ، وآلامي .. و .. وانت يا « أحمد » ..

.. ويضرب رأسه بيده مكملا في ألم :

— وانت تذكرني دوما بهزيمة تفتت نفسي العليلة ياولدي ..

والأيام طويلة .. تمر .. مطوطة لا نهاية لها ..

تسأله الطيبة العجوز أن يتزوج .. يرمى لها بالسم ..

تقتلها كلماته . . ومقتول هو بالحياة ، ومن التى ترضى أيام
بلا شيء .. !

. . وتلح الطيبة :

— ارحمنى يا ولدى ..

— والمقتول يا أمى؟

والولد قاسى ، يطعنها فى براءة . . والجرح ساخن ينزف . .
يسألها أن تخبر « ليلى » لترى نفسها ، صغيرة هى حقا . .

— لا يضيرنا أن نتزوج يا أمى ..

آه . . ويبقى لنا « أحمد » يا « ليلى » . .

. . ومسكين انت يا ولدى . . اشققتك شريعة غادرة . .
أكلوا ـ الوحوش ـ أبيه . . وتركوه بين صدور وأخرى . .

صدور أخرى أقول ؟ .. أبدا .. أتزوجها يا أم .. لكن ..
أنت ميت بالحياة يا « حسام » مهزوم وعائد بيد واحده .
صحيح أنك ـ أصلا ـ تحترف الألوان . . وترسم . . وترسم
الان بيدك الباقية ، ما أبقته شريعة الحرب لك .. لكن .. أيضا
قليلون من يفهمون خطوطك هذه ، مهم ألا تنسى أيضا ، مبهمة

عنها يقولون .. ان لم تنقل ملامحهم كما هى على أوراقك فأنت ـ إذا ـ ليس لك سوى القدرة على تنسيق الألوان فى خطوط لا معنى لها .. تبقى تجريداتك همجية ، غير مفهومة ، ونرد على هذا أنها ضياع من لا شيء ..

ــ تتزوج « ليلى » يا ولدى ؟

ــ والغائب يا أمى ؟

ــ ارحمنى يا ولدى من أجله ، وقل انك قبلت ..

وكنت لى يا « ليلى » صدرا أنام عليه كالأطفال ، ونعاشرنا كأيام أن كان الغائب معنا .. ووحيا .. وحطمنا المفهوم التقليدى لعقد الزواج ..

.. تحكى أمى :

ــ مات ولدى فى الحرب . . تذكرنى ـ وان لم تفصح ـ بأنى لم أشرفها بمن يحمل اسمى ..

ــ لكن « جاسر » مات مقتولا يا أمى ..

. . وعيونها تطعننى ـ لائمة ـ فى رجولتى . . و « أحمد »

جاء من بين الصلب والترائب ، وأنا الغريب عنكما يا « ليلى »

.. وجاء الزوف ..

.. وتوالت اللقطات على شاشة الجهاز الكامن فى ركن الحجرة ، وصوت المذيع التليفزيون يعلن فى فخر أن الممرات – ومنها إلى كل الصحراء – قريبة من أيد قواتنا ..

.. انسحبت « ليلى » خارج الحجرة ، قليلا .. وجاءت وبيدها لوحة كبيره .. فرشت الخريطة على ساقى زوجهـــا ، أشارت الى بعض خطوطها :

– من السكنتلا ، ومتلا .. آه وهنا ..

.. وبترح حقيقى .. صاحت :

– اذن هنا – وأشارت إلى المعابر – الطريق مفتوح لكل سيناء ..

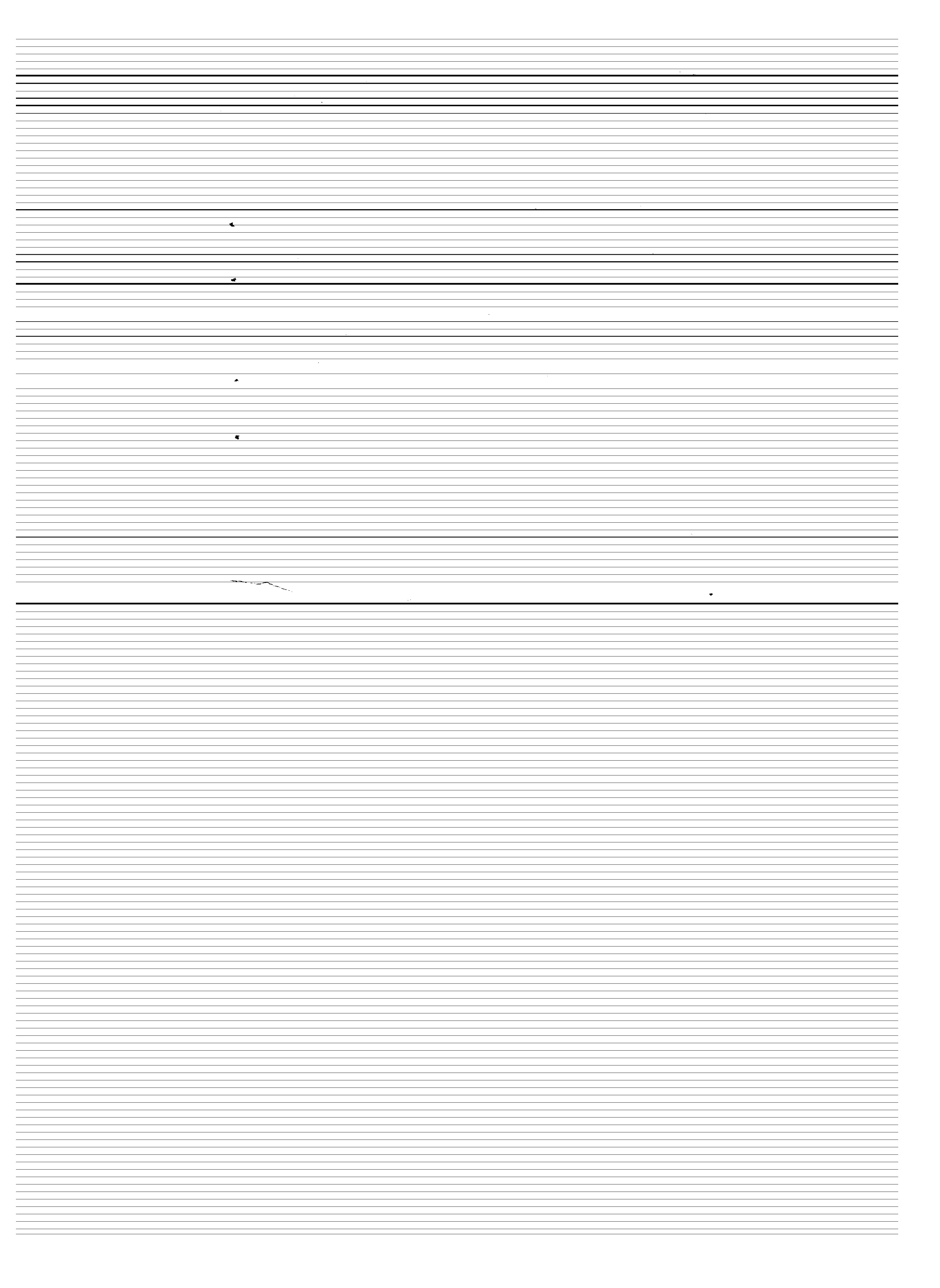
.. وأومأ لها بموافقته .. وتطوق الخريطة فى حرص بالغ وبطتها بمنديلها ، وتعلقها على الجدران ، تماما أسفل صوره الحبيب الغائب ، وبعد أن نزعت عنها الشرائط تجللها بالسواء . حدث – بعدها – يدها الى اللوحة التى غطى الأحمـــر على كل

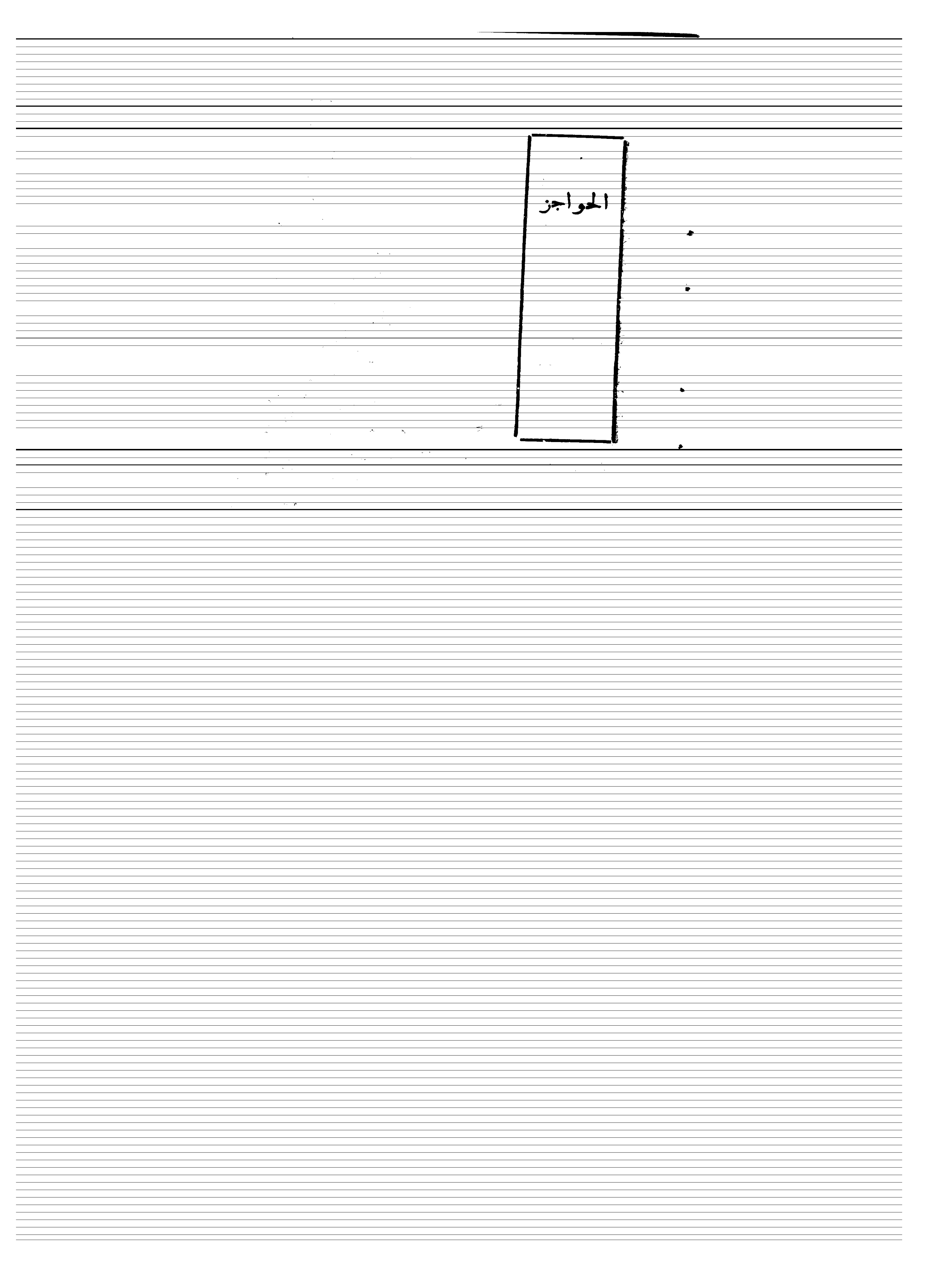
ألوانها الباهتة .. رفعتها بحرص لتضعها هناك بعيدا .. وتلتفت الى صغيرها « أحمد » وترفقه بين يديهـا .. تربت على جنبيه ، تقبله كثيرا ، وتضعه - برفق - فوق سريره الصغير ، وتطبع على جبهته قبلة طويلة عميقة .. عميقة . .

. . وتتجه الى « حسام » ، تلقى من على رأسها طرحتهـا السوداء ، .. وشيئا فشيئا ، تبدأ فى الخروج من ملابسهـا الطويلة .. وتنطرح بجانبه تشد الغطاء اليها ، تطوقه بذراعيها ، هامسة - ولأول مرة - فى حب :

- الليلة يا حبيبى سيأتى ولد . . آخر . .

* * *




الحواجز

...

...

— يا خلق الله .. ! ..

.. وأبحث عن ضحكة ضائعة فى هذا الجو الخانق ..

حجرة رطبة ، مدفونة ، ساعات سهر طويلة أمام هيكل مكتب قديم بال ، تمتد الأيام ، تجىء ، تتطاول ، يتقنون الإبتسام . . . رغماً . تقتحم حبيبى ذا كرتى ، وهذه اللحظات بالذات ، أحاول التخلص منهم .. و :

— حمداً لله .. أسمعنا شعراً ..

.. تتزايد الكلمات ، ككل الأعوام ، زبائن مسابقة الامتحانات السنوية صرنا ، فيها نرى أنفسنا ، نتيقن أننا كبقية مخلوقات الله نعيش ، بعدها : « يا حسرة على العباد » . . ثم .. وإلى عام آخر .. ويعاصرنا الزمن بين جدران أربعة ، محدودة يضغطنا ، يلتف الناس من حولنا ، يضحكون ، وفى شيطانية يرتفع الضحك ، يتطاول ، يمتد . . . و . . ما الذى انفتح عليهم هذا المساء .. ! ..

أتمنى طاقة القدر لتأتيني بأمنياتي « بعضها » همت . . » وآه لو قرأوا داخلي عنها ، إليها ، آه . . لا داعي له « إليها » هنا . . . . « إليها » صعبة التكيف ، خاصة إذا جنحت إلى الواقعية فسأنسحب قبل أن يخبرونها عن شيء مما بيننا ، أو بصحيح العبارة : ما أحمله للبنت « حبيبتي » من حب . .

يهز أخي ذراعي مداعباً ، أحاول التملص من قبضته ، يضحك - الآخر - عالياً ، أضرب الأرض - مغتاظاً طبعاً - بقدمي غضباً . . ويضحك ، يأتي بوريقات صغيرة ، يشعلها أمامي باسماً :

— عيد ميلاد سعيد . .

. . تلفحني نسمة ندية ، يغرقني خجلي ، أتراجع . . أهز رأسي حسرة ، يصيح بي :

— لا تحزن . .

. . ومهلا يندفع إلى الركن البعيد من الحجرة ، في مطاردة - معتادة - لفأر صغير . . يعدل خطته وينصب شبكات الهجوم المكثف ، إثر الخطة يضحك في انشراح :

— وحياة المعبود (زقم) قد كدهوه . . !

.. ويشير إلى عقله من أصبعه مؤكداً سلامة خطته :

— ها قبصه يا ولود ..

.. وتتعالى ضحكاته بعد جولة مثيرة ، أكثر سعادة منى يبدو الليل أشرف على منتصفه ، الساعة فى مقتله تماماً .. لكن .. الوقت متسع .. لو ذهبت الآن لفرحت جداً ، تتزايد فرحتى .. المهم : أن لا تنقضى الليلة هكذا ..

.. الضجيج كالهدير صاخباً ، يلفى الصمت وأخى ، يغرقنا الضجيج المنسكب — عنوة — للداخل .. تلمع عين أخى تنفرج شفتاه عن ابتسامة وهو يبدأ من مطاردة (الرقم) وكسب الجولة .. يظهر الاجهاد فوق وجهه ، يفرش أمامى ثمار البرتقال يمد يده لى بقطع البطاطا الساخنة .. فى اشفاق يحكى عن أمى عندما تعود من سوق القرية ، نضرب حولها حلقتنا المحكمة ، تفرغ — سعيدة — ما معها مخدرة :

— « بظنكوا يا عفاريت .. امهلوا » .

— الجعان ما يهموش ياست ..

.. ويضحك أخى ساعتها ، ويضحك .. ينظر لى فى حنان مشفق :

— لا نملك يا أخى القدرة حتى على العبث معهم ، فالحزن الدائم يملكنا منذ ميلادنا ..

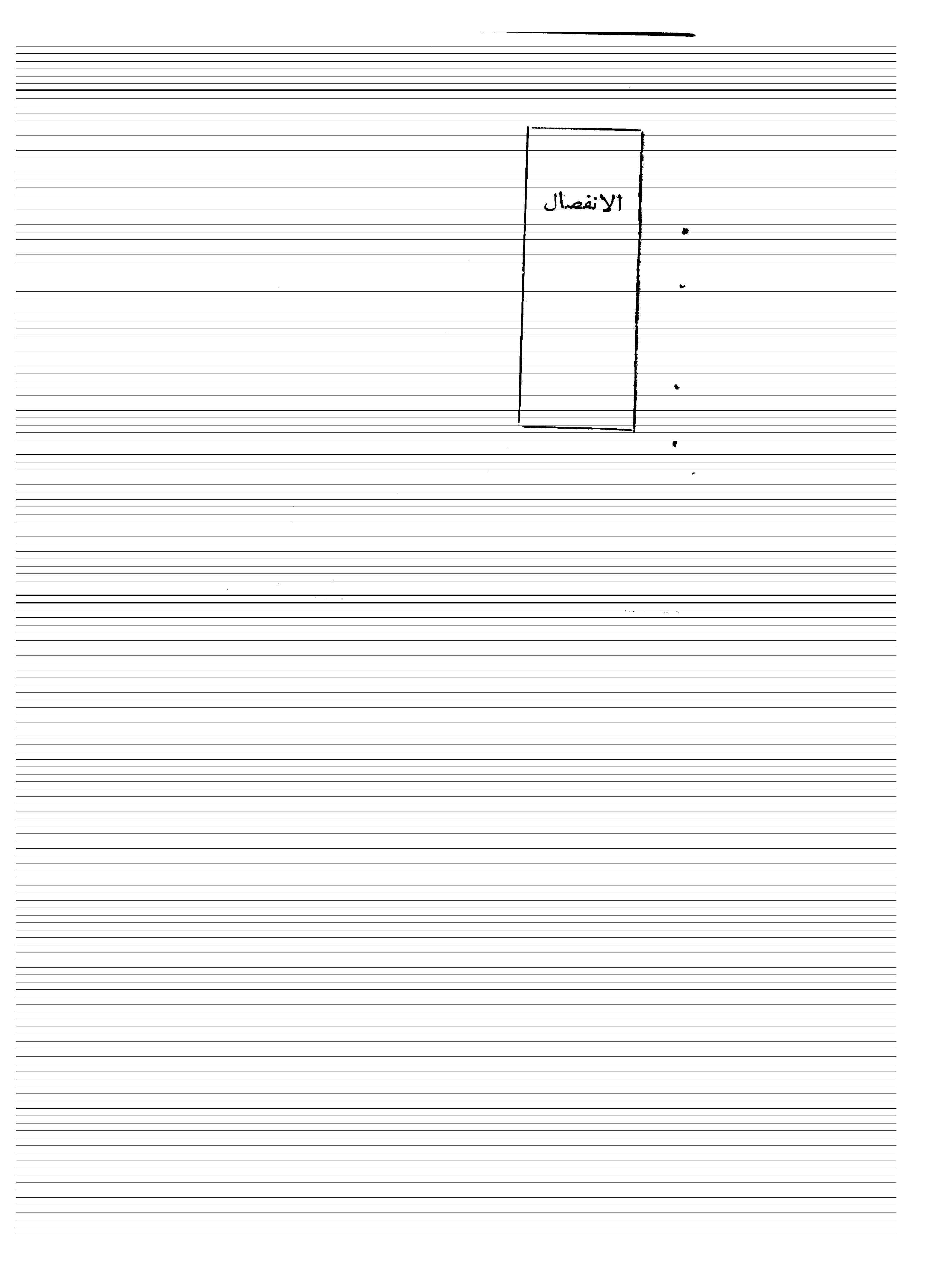
ويقترب منى هامساً .

— والذى جاءنا يا (حلو) نستمر به إلى أجازاتنا . .

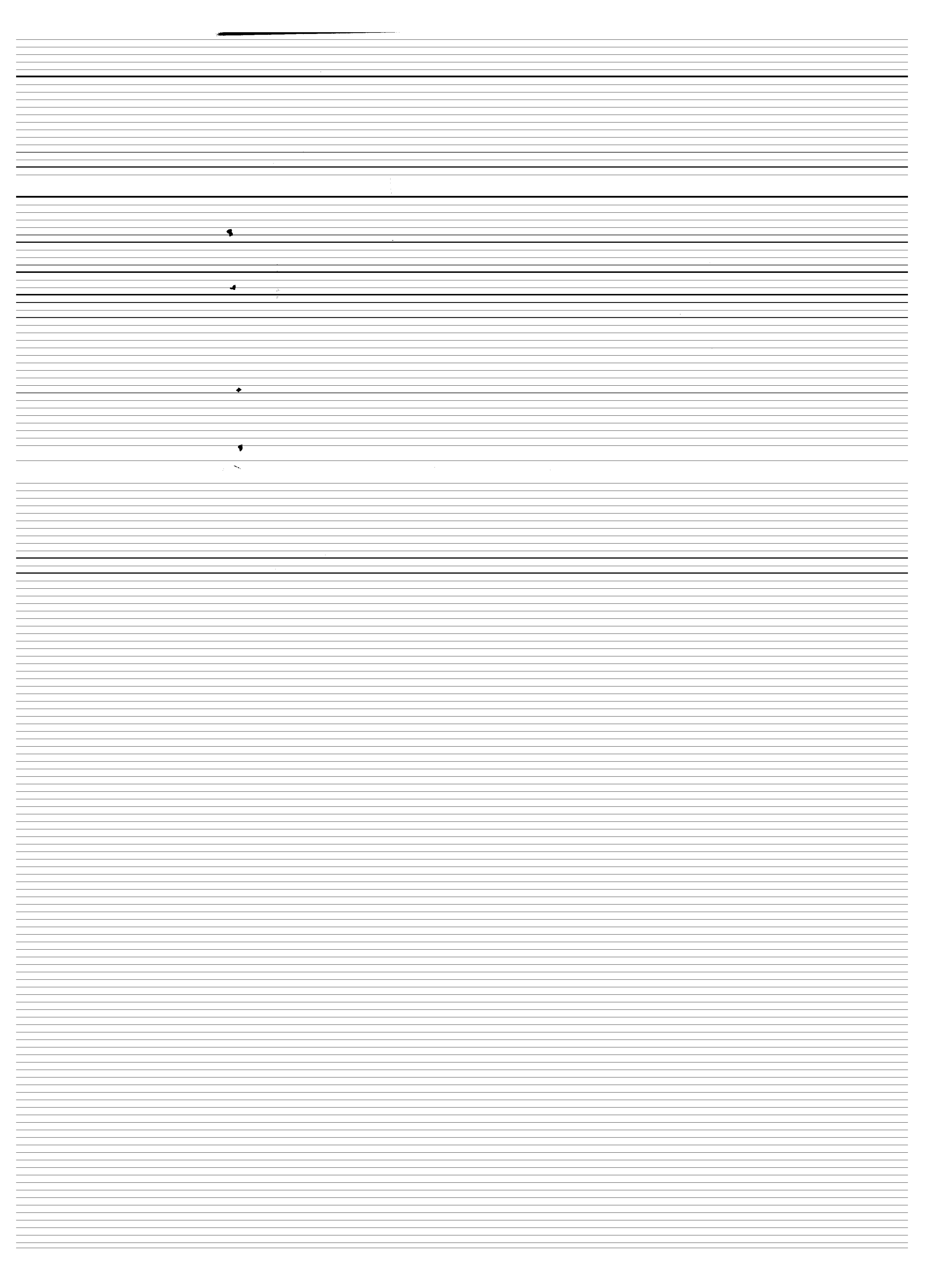
وأبلع أسانا فى حسرة ، يدقق الولد فى البطاطا فى يدى .. كأننا أجرمنا . . ! . يحط الليل الرحال ، تتباشر الخيوط القادمة من الشرق ، يتأهب الليل لمعركته القاتلة . . أنجحص إلى المكتب القديم مقرباً اللمبة الصاروخية من أوراقى . . أنساق معها . . ينفلت البل ، تتباعد الموسيقى ، تنقطع .. أهرب .. أتلفت يميناً وشمالا .. وفوق وتحت .. و .. أصرخ .. يؤكد رفيقى - المتمدين جداً - أن « همت . . » الوحيدة التى يجمعنى بها تفكير (ما) سهرت معه (ذاته) حتى الصباح ، انطلقا . . و (الويل الويل) بعيداً . . بعيداً جداً . . وفى ذات ساعة ميلادى التى كنت فيها ألم غطائنا الممزق إلى جسد أخى لنحتمى من اسمة البرد الذى يأتينا - كالناس - بلا حواجز ، يضحك منى ، يضحك جداً ، وأغرق ، أدور وأدور ، وشهوة للقادم أشرد .. أنتظر.. امتطى جياداً كثيرة قادمة . . انفرد بالسرج المشحون بالكهرباء

المتجمدة ، يتجاهلني ، أجذبه عنوة ، تحملني - وأخي - الجياد
المشحونة صوب انبلاج الفجر المتروي عبر مياه ميته ، طويلة ،
مشجن بالجراحات أجوس بعيني ، أهيم ، أصرخ ، ترتفع الأيدي
فوق الآذان ، تغمص العيون ، ينوح غراب البين على ضائع
العمر ، والرحلة طويلة طويلة . . لـ . . له . . وتتناقل الشفاه
- عفواً - حلول ميلاد ذا كرة جديدة . .

* * *



الانفصال



... طافت علينا أقداح الشراب ..

مسحت المكان ببصرى باحثاً عن لا شيء .. محبوبتى التى اخترتها وعقدت أملى عليها انفصلت عنى ، تبدو فى ثوبها الأبيض كتمثال شمع لا يعرف الاحتراق .. تتحرك عينا التمثال ، يواتيه انفعال غير ملحوظ ، لكنى أحس به .. أى والله أحس به ، وبدون مواربه ، يزلزل كيانى كله ، يخلطنى فى بعضى ويقلب رأسى مكان (نعلى) ويجعلنى ألف وأدور ... والناس ؟ .. آه .. « كل فى واد .. » ...

خفضت بصرى .. تضحك « ماجى .. » حصان الليلة ، تنظر للسكين بحب .. يا للمدينة يا آدم .. !

« الله » .. يشددها أخى ، والله نفسى تنغيمه أبى لها ، يعتدل الشيخ فى جلسته ، يقول أبى مراراً : زدنا يا شيخ « .... » .. يلعلع بصوته حينذاك « قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب .. » ..

يحتويها الآخر ، وكم وعدها وأعطى ..

.. تشهق أمى :

— الذئب أكل « يوسف » بصحيح ؟ ..

.. ومسكين أنين يا أبانا .. كانت « ماجى » لى .. مارسنا الحب خفية .. واحتوينا نفسينا .. اكشف الستار عن ساقيها العاجيتين ، أضم صدرها العنيف إلى أعماق صدرى .. وكلنا الذئب ، .. و « يوسف ولىّ » منا يا آدم ..

— أتحبنى يا « عادل » .. ؟ ..

— كل شىء فيك أحبه يا فتاتى ، صدرك العنيف ، الشهير بالكرم والخصوبة ، أستظله ، أسبح ، أغوص وأطفو فى عينيك البثريتين ، أتجول ، أهيم على خصرك المرمرى .. وتتمزق « ماجى » تحت اندفاع مستلذ ..

— عادل .. ! .. هل تتركنى ؟

— أيام القحط الأسود لم ترو بعد ..

— عادل .. ! .. اتدعنى ؟ ..

— ليس الآن قلنا ..

عندك « ماجى » للنساء فتنة خاصة فى ملابسنا نحن الرجال عينى .. يدور وجهى فوق جسدها ..

— تمنيت أن ..

— أنا لا أتمنى الآن يا « ماجى » .. أمنياتى معى ..

.. وأملأ كل الشقوق الفاغرة فاها لقطرة ماء حيرى فى أيام القحط الجدب ..

— كفى يا مختل العقل .. نفسك .. ! ..

.. وأصرخ فى نفسى .. وآه لو يسمع كل العالم ..

غزوت جميلة المدينة ، لا أرتوى من حبيبتى .. تتسلل إلى عروقى ، تتوالد ، تنمو ، أفيض بما أطويه فى قلبى من سنين .. كم ؟ .. لست أعرف عدد السنين والحساب ، أصرخ ، أمرح ، أجول فى حبيبتى ، أمزق ، أنام مستظلا جيد حبيبتى ، تهدهدنى حبيبتى كالأطفال فى نومنا ، نحلم ..

تقول وفى عينيها أحلام الرغبة :

— كبريائى أنت وذاتى .. بعدك لا أحلم ، فماذا تحلم أنت ؟

.. وأحتويها .. ولا أتمنى ، ترفع عينيها المرهقتين ، أدفع ثانياً إليها بردائى ..

— أنا أحلم .. ! ..

.. أمنياتى معى .. أنت يا « ماجى » ، أنظر إلى العالم بحب

.. أتطاول .. وآه لو ينسانا هذا العالم .. ! .. وتحتويني حبيبتي ،
معاً حلمنا ، خلعنا أسماء حلوة على أولاد حلمنا بهم ..
من « ماجي » أشتق « ماجدة » .
— ومن « عادل » نجيء بـ « عُلا » ..
.. أضحك مستلذاً :
— القسمة غير عادلة يا حبيبتي ..
وتلثم جبيني كأنما تهدهد طفلنا المأمول ، تدندن .. ذات
يوم قالت حبيبتي :
— فلتخرج من ذاتك ..
.. صمت .. « يا خبر .. ! » .. ضحكت حبيبتي ، لعبت ،
وضعت البنت على عينيها طلاء أخضر ، قنعت بالإنتظار إلى حين
يجيء .. قالت وهي ترفع صدرها الناهد(1) :
— التقاليع يا حبيبي ..
— معك احتـــاج للتوضيح الكامل « ماجي » فلم نسكن
قبل هكذا ..

(1) قالت « ماجي » لي أنه بعد أن عرفت طريق شقتي ، لاحظت
أمها كبر بطنها ، مما دعاها لأن تسألها يوماً :
— اليوم .. أين كنت ؟ ..

. . ولم تزحف بشفتيها — كالعاده — فوق فى . . همس
الناس حولى زاد طنينه ؛ تكور كرات هلاميه ؛ اندفعت —
فى توحش — المستقر أسفل غطاء جمجمتى . . أحلم . . وأحلم —
و . . رأيت حبيبتى تستظل أحضان صديق ؛ يطبع عرقه فوق
صدرها . . همست لى فى دلال :

— أعفيتك من قيد أبدى . . ومسئوليات عدة ؛ لكنك
ستكون . .

. . وبرأسى أشحت إلى اللاشيء ؛ يهتز القدح بيدى أثر ضربة
خفيفة على كتفى . . آه . .

— آه . . أحمد . . ! . .

. . أخى يعرف قصتنا . . وأعرف انك تعرف يا « أحمد »
. . وينظر لى فى حرج ؛ أطرق برأسى شادا على يده . . أقوم إلى
حصان الليلة . .

. . أضع يدى فى يدها كامرأه لا أعرفها تماما . .
أتحول إلى صديقى ؛ أضمه إلى صدرى ؛ فى عنف أضمه . .
وقبله ؛ حاره ؛ دمعة حارة تشق طريقها فى اخدود فوق صفحة

وجهي .. أدفن وجهي في صدره ؛ أقرأ على وجه صديقي علامات فرح طاغ ؛ أقاطعه بأمنياتي و . .

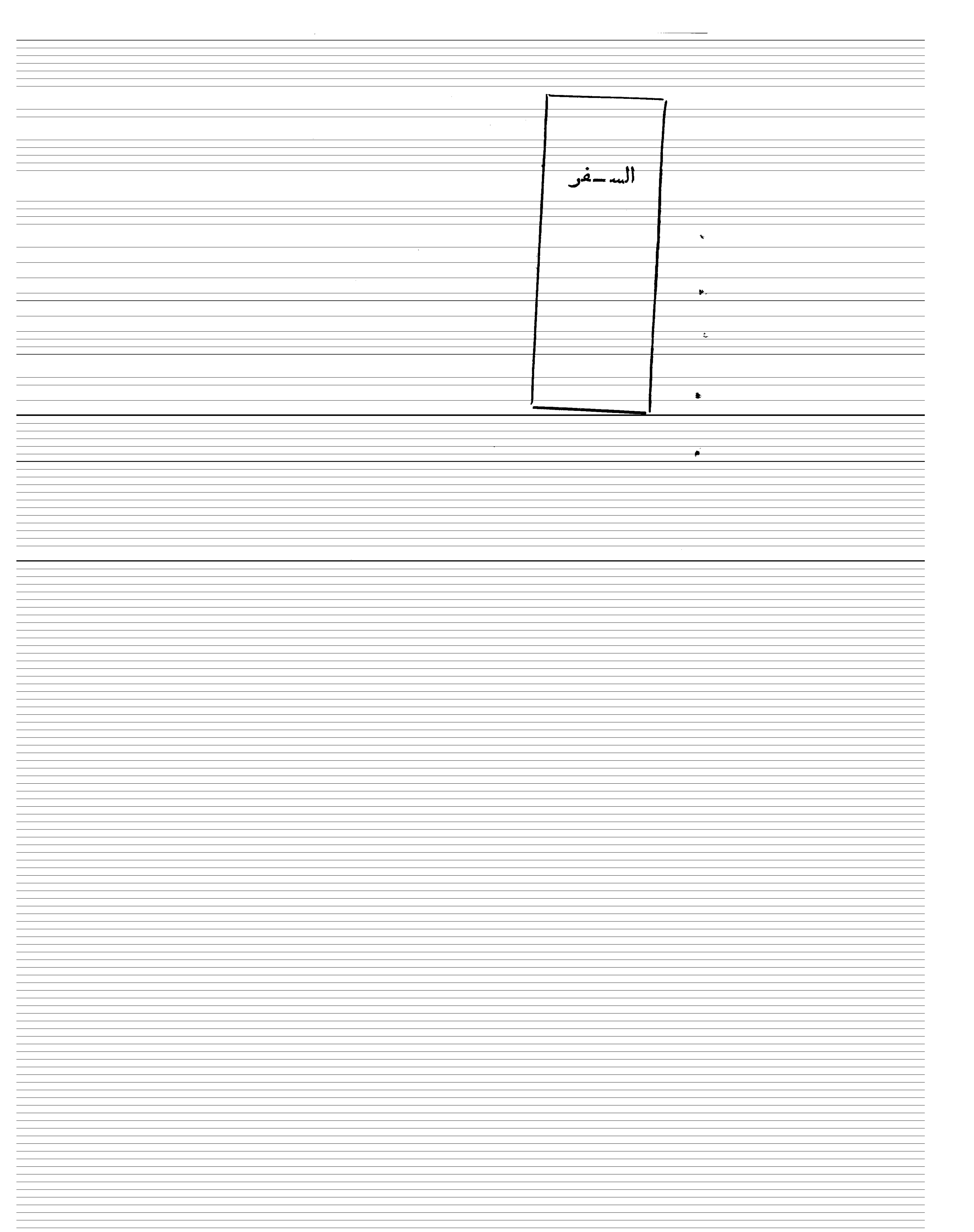
— وأخرج مسرعا وسط ضجيج ؛ وأغنيات ؛ كارها أن تكون عصلق الختامية هي :

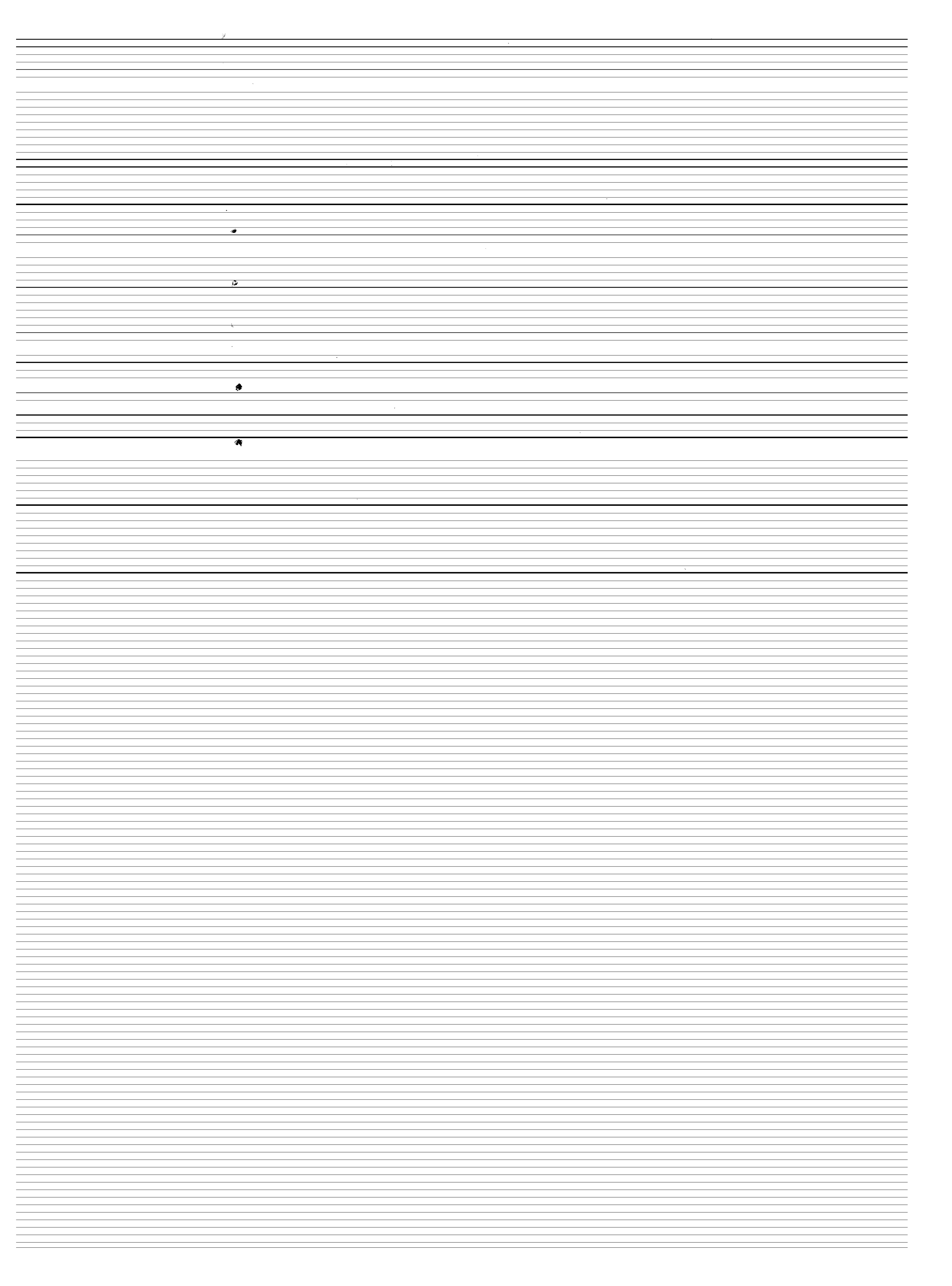
« رجل خلاق في حياة عابثة . . » . .

— و « أخي يشد على يدي ؛ يضغطها ؛ يستوقفني ؛ أضع يدي فوق فمه برفق . . وأهمس له واعدا :

— أعدك بهذا يا « أخي » . . » . .

* * *


السـفر



. . .
. . . وقتها — وفى هدوء — سمحت لعواطفى بالنمو فى
وسط يستبعد منى عاطفة أنميها بدفء صباى . .
الوقت : بعيد جداً . .
لم أحتملك لواحد من هؤلاء ؛ لكن . . ولا لى أيضاً . .
أنت بالذات . . وبالتحديد . . بعضنا يملك بعضا كان . . نمرح ؛
نلعب ؛ يغطينا لون الليل المقمر . .
نتقاسم حتى الحزن معا . .
كنا : أحدنا لا يتميز عن أحدنا ! . .
كنا : أحدنا ليس لواحد من أحدنا . .
كنا : نحلم ببعضينا رغما . .
وأصبحت على البعد تفكيرى وشاغلى . . أطوى غيرتى ؛
أكفنها ؛ أدفنها بين ضلوعى ؛ انتظر القادم . . ولو قرأوا أفكارى
لقالوا :
— مجنون ؛ يحلم بالسماء . . ! . .
. . أشرد . . ويغامرنى خوف . . كيف ؟ . . لا أدرى . .

المهم .. أقف أمام المرآة الواسعة والكبيرة مثل الدنيا ، والملاصقة
إلى الجدار الزيق ، ادقق فى ملامحى .. القامةسارحة ، ولاعود
الزان ، الجسد يحيل — أى نعم — بعض الشىء ، والوجه —
للحقيقة — مريح التقاطيع رغم أن الأيام كسته بالجفـــاف
وفرشته بالنحول ..

— تحول تحول ياولد ..

.. قلتها لنفسى ، هذا لايهم ، كمحاولة للارتياح .. الرجل
يا «عسران» لايعيبه إلا العيب .. وتنفسا عميقا .. ومع الانبساط
احتوى بصرى هذه الكتلة الجديدة .. وأنات تنهيدة عميقة ..
ويافرحتى يا أنا ..

كانى بندرى ياولداه .. ! ! .. بندرى ؟ .. ياخلق الله ..!

بعيون ترقص طربا أمسح الحذاء الأبيض اللون ، مرات ،
اكرر الفعلة .. ، أروح إلى السروال الطويل ، السترة الواسعة
بألوانها الزاهية وخطوطها العنكبوتيه .. تغالبنى الفرحة ..
على مقعد جانبى اتهاوى : (الحروق) يكاد يبتلعنى .. فى تراخ
أروح إلى الوراء .. أرمى ببصرى فوق خطوط فرعونيه ..

وأشرد . . وإلى البعيد أروح . . وأشرد . . والبصر يتجول
ويتحول . . والبحث الدائم . . وعملية البحث . . والكائن . .
ومايذبغى . . وأنت . . أين ؟ . .

دائماً كنت . . ويتكلمون ، وتسمعين فقط ، وتلحين أن
نحكى . . آه . . . عن . . نحكى و — فقط — تسمعين . .
ولا أنت هنا . .

— أحكى أنت . .

. . وتصمتين . . ولا أنت هناك . . ونمتشى . . نمرح . .
ونلعب . .

. . وأهنى نفسى بامكانية المواجهة : الالتقاء والتجربة . .

ويكون اللقاء — بيننا — سهلا إلى أبعد الحدود . . واكتب
. . عن الغربة ياسيدة مداراتى . . وملل أن يعيش الإنسان حيث
اللاشعور ، يعنى هذا أنك مجهول يافتى . . ولا تكون قرير العين
ياولدى . . تكون القسوة اهمـــالا . . و د مُـرة ياغربة . .
والنظرات حالمة تستعطف ، تعكس فى الأعماق شوقا . .

تلومين عاتبة :

— أنت فظيع يا (عسران) . . غربة وأنا معك ؟ . .

ونمتشى . . ونذوب فى دنيانا . .

تتـــدللين :

— لأجلى اغتربت ؟ . .

. . ومع أن هذا أكثر من كاف للغربة ، أغيظك رادا :

— الغربة تربة يا (زينه) . .

. . وتهون الغربه . . لمنع أبى من تساق النخيل ، ومسكين أنت ياأبانا . . يبق (متولى الحلباوى) لبانة الرجال ، علامات الرجال تهز ياللعجب العجاب . . ومعك يا (زينة) أحلم : مصر أم الدنيا ، أى نعم ، . . والغربة حتى فى الجنة قاتلة ، تتمة لمسيرة أحزان السنون فوق كتفى أبى . . تنوء الأحزان على الـكتفين ، نخلد للصمت ، نفـكر فى كلمات :

— يا أبى أنت البركة . . كفانا . .

. . نقطع أن تبيع أمى ثمار التوت على الطرقات ، كفاها والله ، أسودّ وجهها من لفحة الشمس وعيون المارة . . تنغمس العيون فى الصدر ، تندب كأنصال الخناجر المسممة ، المميته ،

تتجمع ؛ تنسحب مع الغروب لتمد فوق (الحصيره) ؛ حولها تضرب الحلقة ؛ نرجوها أن تتحدث عن أيام العز والخيل والليه وفتحة بيت العيله . تذكر أنها لاتذكر ، ولاتريد أن تتذكر أبداً نلح عليها . . تمصمص شفاهها بأسى وتتمتم فى حسرة بأنها . . :

— كانت أيام . . ! . .

. . وترجعينى إليك ؛ تختلط انفاسنا اللاهثه ؛ معاً نذوب فى الاحتواء ؛ ترتج الدنيا من حولنا . . أصحو عليك . . :

— قال غربه . . ! . .

. . ونغيب ثانياً . . وساعات . . وساعات — فقط — ويجيء الحظ يا (زينه) . . أهو عمل والسلام ياولد . . وللحقيقة ضاع من نفسى كسر « ارشى تشفى » . . فالعـــين بصيرة . . واليد . . ! . .

وأكلت الطرق القدمين من التطواف . . والرد معروف مقـــدما :

— التعيينات موقوفه ياسيد . .

— خير إن شاء الله . . ! . .

ـــ الحرب ياخينا . . قال شغل قال . . ! ! . .

ـــ ... ياهــو و و ه . . ؟ . .

ـــ على عليك ياخــويا . .

. . وتتمزق نفسى ، تتطاول ـــ رغما ـــ أحـــلاى . . أكورها . . أحملها جريا وراء الخلاص الآتى . .

تدمع أمى . . أضحك من أجلها . . تصرخ . . أركب رأسى فتحملنى بوصاياها . . تلوح بمنديلها ، تحذر :

ـــ وحرصى قوى من مصر يا (عسران) ، وبنات مصر كمان يابنى . . طيبة أمى . . أضحك رغما . . فقد كانت ليلة :

. . ما أن خرجنا من جوف القطار حتى احتضنت أيدينا يد (الحاج بخيت) . . نظرت بإكبار إلى صديق صدق وعده ، حلت المسألة . . تجمعنا تحت سقف عريشة رطبـة فى أطراف المطرية ، عببنا ما أستطعنا من الشاى الأسود . . دارت النارجيلة مرات . . وضحـــك البعض . . ودارت الرؤوس . . سعلت بشدة . .

أرتفعت النار من أحشائى إلى الحنجرة . .

نفرت عروق رقبتى ونظروا فى اتجاهى . .

سمعت أكثر .. وضحكوا .. وفجأة صاح واحد :

ـــ إشرب (لمون) يا بـلد ..

ـــ هـا هـا ... هـا ..

.. وشكرت صديق .. أمهلني في ثقة .. أقسم بكتاب الله

ـــ الشغل من بكره يا (عسران) .. عيب .. ! ..

.. وأكد الجميع المسألة .. وقبل تباشير الصبـاح انطلقنا إلى عملنا .. الحقيقة خامرني .. خوف صحت في واحد :

ـــ والمستقر ؟

ـــ ما خابرشي يا (بوى) ..

وهـزني برفق :

ـــ البلديات لسـه خام ؟ ..

ـــ أصـــل ..

قلتها في صوت واهن .. توقف الرجل الضخم الجثة مركزاً عينيه في عيني .. صاح غاضباً :

ـــ أنت جبان وواكل ناسك .. كلها شهور وتملك أحسنها عمارة في مصر ..

وخبط في شدة على كتفي مكملاً :

— أه . . فهمت ؟ . .

. . هزرت رأسى مؤكداً تمام فهمى ؛ ضحك عالياً مشيراً بالـ « تمام » . . . وساعتها لم أفهم يازينة البنات إلا أن (عمران ولد متولى الهلباوى) وقع ياناس . . ومعصوب العينين فى ساقية أدور . . آكل ياهـووه . . وأحمـد الله . . وأستلقى مبكراً إستعداداً ليوم جديد وعمر . .

. . ثقلت المسألة على نفسى ؛ أرسلت الشمس خيـــوطها الجهنمية تأكيداً لسلطانها . . لرمال كأنما تنفث كبت السنين فى أمل الخلاص . . تملأ النفوس فرحة الالتقاء . . يضحك الرجل السمين . . ينظر إلينا فى موعظة من مواعظه :

— ألوفات ياولاد الزنى . . !

. . ويسرع فى الاستلام ، يرتفع صوته :

— دهب ياجدعان . . من أنعم نعم الله علينا . .

يداهمنى الخوف . . تتضخم الأفكار فى رأسى . . فى الحلقة أدور . . تتكرر الجولات . . واسشيح إلى الخلاء . . كم الأيام حبلى يا أمى ؛ ترتسم على شاشة ذاكرتى الخريطة التى مراراً رسمها الشيخ (الشايب) و :

ـــ الطريق ده ياولاد هوه سكة الأربعة ..

وتنفلت منى ضحكة .. يصرخ واحد :

ـــ أنت فين ياخى . . ! ! . .

.. فكرة . . : أرتد إلى الوراء ، أطوح أوراق الرجل..

أسحب (الترفر) و :

ـــ ايدك لفوق يا (حاج) . .

.. وتروح كفى فوق عينى التى صهـــدتها الشمس ، أقلب

الأوراق فى ضيق مكتوم ..

غير متكافئة اللعبة .. أرفع يدعى إلى رأسى ؛ ولأول مره:

ـــ يدوم يا (حاج) ..

أي والله .. أول مـــرة .. حتى بعد أن واجهنى أخى

هازئا :

ـــ أخفضها شويه يا أخى .. كلها حنيه خفيفة و :

صباح الفل ياسعادة البك ..

يومك قشطه يامعالى الرياسة ..

وفض الولد نظره منى بعد أن (طهق) .. كورها لى واحد

فى عربة ركاب .. صمت .. آخ .. صحت به :

— يومك زى الطين يا أخى . . ! . .

وتنفرش عيون الصغار فى لحن ، تصرخ ، يحملها أبى ؛ يكتم حزنه مشجعاً :

— أنا المسئول ياولاد . . (عمران) مقصرش . .

وتفضح أبى دموعه . . يحتضننى :

— كنت عايز أشوفك كبير قوى ياعمران . . لكن . . المقصود . . يابنى . .

أعتب فى لوم :

— عندهم حق يابا . .

وتختمر الفكرة . . أشعشع :

— أيوه يابا . . أنا لازم أسافر مصر . .

وتلوح أمى بمنديلها ، وفى منفى الصموت تذوب يازينة البنات . . أغلق — تماما — جراحى على ذاتى المفقودة بين الخوف والالتقاء . . والمطاردة . .

يصرخ الرجل السمين رامياً بذور الاطمئنان فى نفوسنا :

— ولا حد شاف السبت يا رجالة ؟

— . .

وترتفع التهمة فوق رؤوسنا .. نغوص فى شباكها ..
أتململ .. يأخذنى وجهك النيلى ..
وجهك يازينة قمـــر ..
.. وصدرك يشبه الدلتا ..
أجى .. يصيح العمدة :
ـــ والأرض مالها يا (عسران) .. ؟

.. وتخنق العبرات حيوتى .. المهم .. أعمل .. ونلتقى
يا أميره .. وصباح مساء .. أساطير عجائز هذا والله ..!..

.. وأنعم بفرحة قد تجيء ..
.. والاحتواء ..

.. وألقانى كما حلمت . لى أمى .. الامارة وسط أكوام
من الأسماء .. نكسر حائط التقاليد الرثة .. أدندش الحصان
الأبيض .. آه يا أميره .. جاءت التجربة وما مراراً حلمنا به ..
فقط يرجى التمهل لاكتشاف روعة الأشياء فى نفوسنا ..
الثبات ـــ فقط ـــ والإثبات .. العن (الحاكوره) جهراً ..
ينكرنى أولاد الـ (...) كمتعد للتقاليد .. يتهامسون :

— الولد عاذ بيقول كلام يسطل ياجدعان ..

— بيقولوا — اسم الله — شاعر ..

— شاعر ؟ ..

— شاعر ..

— ابن (متولى الحلباوى) بقى شاعر يا اهل الحاكوره..!

— والله وطلع منك موالدى بربابه يا بلدنا ..

— هيقفل على (فنجرى) يا جدعان ..

يدفع التهمة (بركات) .. يرمى لهم بالسر السحرى :

— دا شاعر كتب .. مش موالدى يا بلديات ..

ترتفع أصوات .. تميل رؤوس على بعضها . تتلاقى عيون .. تغمزه :

— أيوه يا (بركات) .. حاميله يا خى .. ما يمكن يأوله تقول أنه فى مدارس مصر كان .. ؟ ..

ويثبت للبوجه .. يرد (بركات) :

— والله (عمران) من يومه كان شاطر يأهل (الحاكوره) المهيبة اللى ما تبطلش مط ف سيرة الخلق .. وماهوش ذنب أنهم طلعوه من المدرسة .. ماهو يعنى هوه كان طلع نفسه ؟..

.. وتتكاثر الرؤوس .. تتمايل .. تزداد ألتصاقا .. تلعب الشفاة واشية .. أجهز راحلتي إليك .. أقتـــل بجهوليق .. ويصدق الناس — وقتها — (بركات) وهو يثبت لموجتهم .. ويزرعنى العم فى عمل ينقذنى من الخفوت من اللاشىء .. دأم الدنيا مليانه شـغل .. إلا إذا لازمنى النحس .. واستعيذ بالذى لا يموت ويحيي ويميت .. متوفرة كل الاعمال ـ لاشك ـ إلا أن تكتب وتأكل .. مساكين نحن .. نعطى للـكلمات دمنا، تنزف القلوب .. نتوه آناء الليل وأطراف النهار ..

.. ونكتب ..

ومنا من يفر عقله فى التجوال .. ومن يذبل قبل العطاء .. والباقون بعد بداياتهم الحقـة لا يجدون ما يقتاتون .. ترتفع كلماتهم ســـيوفا ؛ تلسع ؛ نرفع عليها أوراقنـا ؛ نميلها فوق رؤوسنا ..

حبالى نحن — والله — ياخلق الله ، خصيب العطاء فينا ، نقف أمام أعناق الزجاجات الرادة للذات نفسها ، نعرض كلما تنا ، نتأجج .. نبقى زبائن مسابقة سنوية لا تغنى من جوع ولا تسمن .. تبقى رغباتنا أبليسية فى الجنة .. تأكلنا الأحداث

أحيانا ، تصيب القرار فينا . . نتأرجح مرة أخرى . . وثالثة
. . مرات . . و . . تبدو الرحلة مع هذا مرحلة عطاء . .
خصيبة يا (زينة) البنات . .

و نلتقى . .

وأبديا نلتقى . .

. . ونذهب إلى (الحاكورة) . . يأخذ أبى علبة السجائر
المزركشة . . يضحك شاكراً :

— يا بنى . . هوه إحنا نعرف إلا الجوزة . . ! . .

نطوف القرية معا . . يعرف الناس الجبن الأصفر وعلب
المربى . . و . . تظللنا أشجار الصفصاف . . نمرح تحت عيدان
السيسبان الطويلة . . نحكى عن الأيام . . وجميز القرية وتوتة
(عباس فيومى) وكم تقلصت أمعائى بسبب ما يحتويه من
ناموس مقرف ، يزفنى الأولاد :

— التخن ع الجميز يا واد . .

— . . .

وأجمع البطاطا وحبات الفول . . تتكاثر الأحلام ، تعشش

فى (الدماغ) .. يغيظنى الاولاد .. أصرخ فى وجوههم :

ــ وبرضه هاجيلك يا مصر ..

وتتمزق الأحـــلام .. يتجمع الاولاد .. يلتفون دائرة حولى .. تستحكم الدائرة يأخذ القطر فى الانقراض .. يتقلص إلى الداخل .. يصرخ العم .. يلتفت إلى المـرأة (المتسلطة) بجواره :

ــ و (عمران) جه فى وقته ياست .. بدل ألف ألف (تحية) ياست .. وعندنا وعندكو واحد ..

.. وتفرقع السكات .. تسكتكة .. وطلقات متتابعة .. تأخذ فى الصـــدر مكانها . . يحدث انفجار هائل يلف القلب والصدر ويتسرب إلى الساقية وتنفر عروق الذراعين وشرايينهما . . تنظر لى المرأة المتسلطة . . يغسلها بصرى . . أنسحب إلى الداخـل . . يخرجنى الاولاد إلى الدائرة ثانيـا . . وفى الدائرة أتطوح . . يتحطم كل شىء : الفرس المندهش . . يصرخ الفارس عندما تغيم الرؤيا فى عينيه . . وتتسلل أشياء كثيره لداخل

نفسى . . تتكور . . تتزايد . . آخرج أمى مره . . تتربع كلمات
أمى داخــــل الإطار الـكبير . . تدور . . وتدور فى عنف . .
تأخذ نفس كلماتها فى العقل والقلب و : « واوعى شغل القهاوى
كان « ياعسران » . . . » . . والتطواف . . والرغبـــة الملحة فى
الخروج . . والانكباب فوق صقيع كالرصاص . . والأولاد
يهللون . . والساعة تدور . . والدائرة تنسحب إلى الداخـل . .
وفى هدوء الساعة تضرب . . وأعتب على جدنا . . آه يا آدم . .
ويزداد الضجيج . . وهلاميا يندفـع إلى (النافوخ) . . يختلط
. . يتفرع إلى شوارع ضاجه . .

ويسيطر على خاطرى القطار الذى يشق العاصمة ، ويصفر . .
وأسحب أقدامى صـــوب الجنوب . . وتبسمين لحـكايتى . .
وأنتشى . . وأجمـع هلاهيـلى المنقوشة بآثار التوت وحمـــرة
الجميز . .

وهممت . . . .

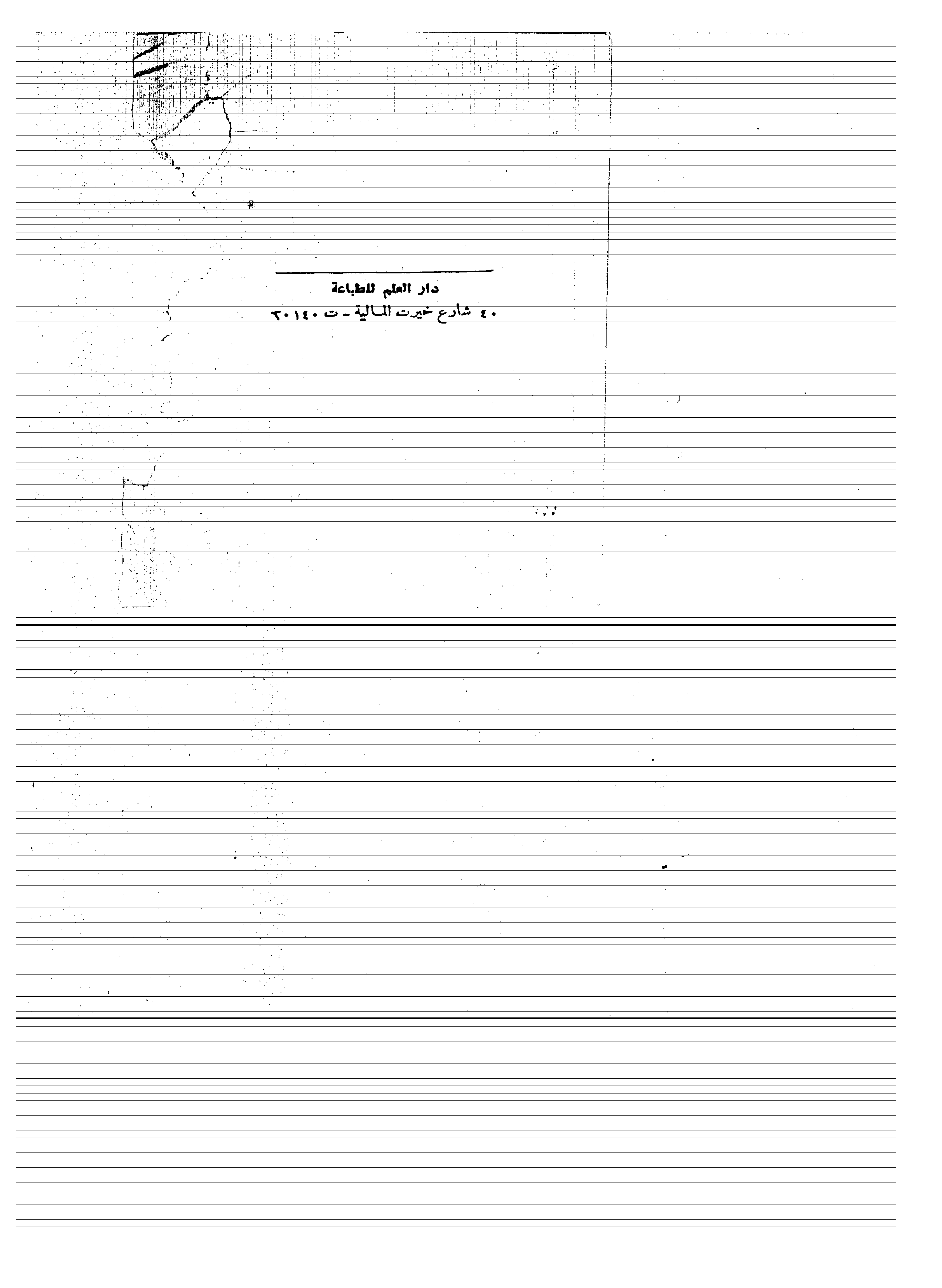
. . وتسرع أقدامى . . تنفتح الخطى . . ويصفر القطار

بعد أن يدق الجرس الكبير بالمحطة الكبيرة دقاته المعتادة . .

وألمح الأضواء الكثيرة وآلاف العيون تغوص فى جوف الظلام . . وعلى المقعد الخشبى اتهاوى . .

ويبدأ الرجال حديثهم الطويل . .

* * *



دار العلم للطباعة
٤٠ شارع خيرت المالية - ت ٣٠١٤٠